محمود تيمور

أبو علي عامل أرتست

وقصص أخرى

كلمة

للبحاثة الكبير الاستاذ ج . ويدمار

المستشرق السويسرى

من مقدمة كتابه الذى ألفه بالالمانى عن المؤلف
وترجم له فيه نخبة من أقاصيصه

قال :

. . قد تبدو قصص المؤلف لأول وهلة بسيطة . ولكن هذه البساطة هى السرّ فى قوتها وتأثيرها . وترى الشخصيات المختلفة الواردة فيها ظاهرة بوضوح وجلاء ومملوءة بالحياة . فالمؤلف يتغلغل فى أعماق نفس الشخص الموصوف لكى يبرز عقليته الحقيقية . أمّا لغة القصص فجميلة وبسيطة . والكاتب يتجنب دائما ذلك الأسلوب المصطنع الذى نهج عليه بعض المؤلفين حتى فى هذا العصر .

كلمة للمؤلف

ظهر القسم الأول من قصة « أبى على عامل أرتست » فى البلاغ اليومى الأغر منذ نحو سبعة أعوام . ثم ظهرت القصة بقسميها الأول والثانى منذ أربعة أعوام فى السياسة الاسبوعية الغراء . ولمّا فكّرتُ فى اعدادها للطبع فى كتاب مستقل وبدأتُ تنقيحها رأيتُ نفسى مدفوعاً الى كتابتها من جديد . فألّفتها ثانياً تأليفاً خالفتُ فيه الأصل من وجوه كثيرة . فأصبحت فى شكلها الحالى تختلف اختلافا بيّناً عن القصة الاولى .

العودة

العودة

لأسرة الحوامدى ضيعة بالقرب من بنها يتوسطها منزل حقير قديم اذا قورن بدور الفلاحين ظهر كبيراً فخما تقيم فيه امرأة ارتبطت شخصيتها وحياتها به فأصبحت كأنها جزء منه لايتجزأ . هى أم زيّان « العجانة» التى تسكن الفرن وتقوم بحراسة المنزل وتنظيفه . امرأة مجهولة العمر قصيرة القامة بجسم نحيف ووجه صغير مكسو بالتجاعيد . نشطة فى الخدمة لايهدأ لها قرار . تراها أمام الفرن تحرك الارغفة وفى التقفيصة تطعم الطيور وفى الزريبة تحلب الجاموسة ،رائحة غادية فى صحن الدار ـ وعلى رأسها جرتها التاريخية ـ تحول الماء لملء الأزيار . وهى فى مشيتها تسير منتصبة القامة مرفوعة الرأس فى خفة بنت العشرين . وتهز يدها اليمنى الى الأمام والى الخلف كأنها جندى يسير في حفلة استعراض .

وقديما كانت لأم زيان دار خاصة تعج بالأطفال وزوج نشط طيب يعمل لرفاهتها وسعادتها فكانت تعيش سيدة بيتها لاتخدم إلا زوجها وأولادها . ولكن هناءها لم يدم طويلا اذ ناصبها الدهر العداء ـ على حسب قولها ـ فحرمها من زوجها عائلها وحامى ذمارها . فكانت فاجعة تحملتها بصبر عظيم ، وعكفت منذ ذاك الحين على

العمل فاشتغلت أجيرة فى البيوت وفى الغيطان واشتغل معها بناتها وصبيانها الكبار ليساعدوها على العيش . ولكنها لعظم شقائها فقدتهم جميعاً الواحد بعد الآخر . إلا ابنة فى الثالثة عشرة أبقاها لها الموت بضع سنين ، حتى إذا ما تزوجت وخلّفت « الغالى » عاجلها القضاء كأخوانها وأخواتها من قبل . وهكذا لم يبق لام زيان من أسرتها إلا ذلك الحفيد الصغير الذى تركه أبوه فى عهدتها ليتفرغ هو الى عمله وزوجته الجديدة . والتحقت أم زيان من ذلك الوقت باسرة الحوامدى فانتقلت هى وحفيدها « الغالى » الى حجرة الفرن حيث اتخذتها مسكناً لها

وشب « الغالى » وترعرع فى أرجاء الفرن فنام على القش والحطب وحبا على الارض الصلبة الساخنة واستنشق منذ نعومة أظفاره رائحة العجين والخبز واكتسبت بشرته لوناً نحاسياً براقا كلون الارغفة الساخنة . وكم من مرة وهو صغير دفعه فضول الطفولة الى دخول « محمى » الفرن ليتعرف كنه ذلك القرص الاحمر الملتهب الذى يتألق فى جوف الفرن الداخلى . فانتشلته جدته من بين ألسنة النار قبل أن يغدو طعمة لها . وكثيراً ما غمس يديه فى المواجير ولطخ وجهه بالعجين ، أو هجم على الارغفة وهى خارجة من النار فمزق منها ما استطاع أن يمزق واكتوت أصابعه بلهبها ثم يجلس

بعدئذ على كوم من الحطب ينتحب ويبرد يديه فى الماء وبالاختصار كان « الغالى » شيطاناً من شياطين الانس قد ولى نفسه حاكما مستبداً يعيث فساداً فى مملكة الدقيق والنار . وقد وهبته جدته عطفها كاملا وأورثته حبها القديم لزوجها وأولادها السالفين . بل حبها للحياة نفسها إذ كانت ترى فيه مناط هنائها وغاية أملها لا تعيش فى الحياة إلا لاجله

ولأم زيان صبر واستسلام عجيب يكاد يكون من خوارق الطبيعة الانسانية مع ما أصيبت به من أرزاء مفجعة . لا يُرى على وجهها عبوسة اليأس ولا ثورة السخط ولا يُسمع من فمها كلمة شكاية أو ملل من الحياة . بل هناك بشر دائم طبيعى متألق فى صفاء عينيها المكحلتين هو بشر الطمأنينة المستقرة فى قلبها . ولا يذكر انسان مر عليها ولم يشاهد تلك الابتسامة الخالدة مرتسمة على فمها والتى تحاول دائما أن تغطيها بذيل خمارها . واذا رغب أحد فى حديثها وسألها قائلا :

— كيف حالك يا أم زيان

أجابته بصوتها الهادىء الوقور إجابتها التى لا تتغير قائلة :

— ألف حمد وألف شكر لله . كل شىء طيب فى الدنيا

وكثيراً ما يزورها أفراد أسرة الحوامدى فى « مستعمرتها »

فيجلسون بجوارها أمام الفرن يراقبونها وهى تحرك الارغفة بالمحراك الحديدى أو يدخلون معها التقفيصة يشاهدونها وهى تعجن الردة وفتات الخبز للطيور يستمعون بشغف لها وهى تروى لهم أشهى القصص وأطيب النوادر والاخبار. أما « الغالى » فهو لها كالكلب الامين. يروح ويجىء خلفها أينما ذهبت وكثيرا ما يتشبث بذيل ثوبها إذا رآها تكثر من التنقل خوفا من أن يفقدها. واذا أرادت أن تتخلص منه للتفرغ لعملها صنعت له حصانا من أعواد الذرة الجافة يركبه ويجرى به فى صحن الدار فرحا.

ولما كبر الغالى تجرأ على الخروج من المستعمرة بمفرده. فلعب مع رفقائه الصغار على الاكوام وركب الحمير السائبة وهى عائدة الى زرائبها. وقصد زاوية الصلاة فى وقت الهجيرة ليعاكس النائمين من عباد الله الصالحين وخرج الى الغيطان يرقص ويردد مع فتيات الضيعة أغنيتهن المشهورة:

« ياعود الحشيش يا لخضر يامزرع يامالى الغيطان ياعينى »

وكم انطلقت أم زيان الى الغيطان تبحث عنه حتى اذا ماعثرت عليه اقتادته الى وكرها وهو يصرخ متمردا ثم لاطفته بعود صغير من القصب تشغله طول الوقت بمصه

ولما كبر وأصبح له من العمر سبع سنوات كان يرافق أسياده

الصغار من أسرة الحوامدى الى الفيطان فيشاركهم فى أكل البطيخ والخيار . واذا أزمعوا فسحة الى القرى المجاورة وركبوا الحمير لهذا الغرض جرى خلفهم بعصاه الدقيقة يحث بها الدواب على السير .

وكان الغالى لا يرى أباه الا فى المواسم والاعياد إذ كان الاخير قد انتقل بعائلته الجديدة الى بلدة بعيدة عن ضيعة الحوامدى وجد فيها ربحا أوفر

***

وحدث أن حل الأب على الضيعة على غير ميعاد . ولما سألته أم زيان عن سبب حضوره — وكانت قد أوجست خيفة منه — أخبرها بأنه يريد أخذ ابنه ليرسله الى القاهرة كخادم مع عائلة غنية . فقد رأى أن الفلاحة فى الأرياف ليست ميدان الكسب الحقيقى لأبناء هذا العصر . فهناك فى « المدينة » ينشأ الطفل وأمامه ألف مهنة يختار منها ما يوافقه ، هذا فضلا عن حياة الرفاهية التى يتنعم بها أهل المدن . فقابلت أم زيان حديث الأب بالاعتراض وتوسلت اليه أن يبقى حفيدها فلم يعبأ بكلامها وأوضح لها فى شدة أنها اذا مانعت فى أخذ ابنه قضت على مستقبله قضاءاً مبرماً . وواجبها الآن أن تضحى بشفقتها في سبيل هناء حفيدها . وأخذ يحدثها حديثاً طويلا عن تلك الحياة الرغدة التى سوف يحياها غالى فى (المدينة) وعن مستقبله الباهر الذى ينتظره . فلم تجد لديها

حجة تعترض بها عليه . وأذعنت لحكم القضاء صاغرة كما أذعنت له من قبل . ولكنها بعد صمت مضطرب سألت الأب قائلة :

— وهل يغيب عنى طويلا ؟

— سوف يجئ ليراك كل عام ويمضى العيد معك

— وهل تظن أنه يفلح فى المدينة ؟

— كل الفلاح . سوف يعود اليك بكسوته الافرنجية وطربوشه المعوج وحذائه اللامع . سوف يعود اليك فتى رشيقاً من أهل المدن لافلاحاً جلفاً من أهل القرى . سوف يأتى الينا محملا بالنقود والهدايا

وتخيلت أم زيان فى تلك اللحظة حفيدها الغالى ببذلته الافرنجية الأنيقة وطربوشه المعوج وحذائه اللامع معتلياً ظهر البغلة وخلفه غلام يجرى بالعصا . فلمعت عيناها بدموع الفرح . ولكنها كانت تشعر فى الوقت نفسه أنهم ينتزعون منها جزءاً لاينفصل من قلبها فأخذت تبكى وتشهق وهى لاتعرف اذا كانت تبكى فرحاً لمستقبل الغالى أو حزناً على فراقه

وتركها الأب بعد ماوعدها بالرجوع بعد أيام لأخذ ابنه . فدخلت أم زيان حجرة الفرن وأقفلت بابها عليها . وأسندت ذقنها على يديها وتاهت فى أحلام مختلفة ، ودموعها تسح مدراراً على وجهها

وفى اليوم التالى خرجت قاصدة السوق وعادت منه بحمل من الأقمشة شرعت تفصلها وتخيطها جلاليب وطواقى للغالى وكانت تسهر الليل أمام مصباحها تخيط وفى حجرها الطفل تهزه وتغنى له أغانى المستقبل المبهجة معددة له صفاته حينما يكون سيداً كبيراً له شارب غزير مفتول كشوارب الحكام ، وطربوش أحمر فاتح اللون كطرابيش الامراء يهتز زره فى الهواء هزة الخيلاء ، وحذاء ذو صرير عال كأحذية الجنود يسمع صوته من بعيد . وكانت تنظر اليه نظرات طويلة عميقة ثم تنهال عليه تقبيلا وضماً حتى تزعجه فيصحو صارخاً من النوم . فتعيده على حجرها وتلاطفه فى سكون بهزاتها الحنونة وتغنى له من جديد أغانى المستقبل بصوت كله نواح وشجن

وأخيراً سافر الغالى مع والده الى مصر وبقيت أم زيان بمفردها فى حجرة الفرن . ومن الغريب أنها عند وداعها لحفيدها لم تذرف دمعة ولم يظهر على وجهها أى اضطراب بل كانت تضاحكه وتلاعبه ببشاشة وتروى له مختلف الاقاصيص . ولكنها لما عادت الى وكرها حبست نفسها فيه أسبوعاً كاملا خرجت بعد نهايته بوجه شاحب يشبه وجه من دُفن وخرج من القبر حيا

***

وسار دولاب الحياة سيره المعتاد فعادت أم زيان الى سابق

عملها أمام الفرن تعجن وتخبز وفى قفص الطيور تطعم الدجاج وفى حظيرة البهائم تحلب البقر وتصنع الجبن . ورجعت اليها بشاشتها وظهرت على فمها ابتسامتها . وأخذت تسير مهرولة فى فناء الدار كسابق عهدها تشتغل بنشاط واهتمام إلا أن قامتها انحنت قليلا وزادت التجاعيد فى وجهها

ولكن اذا جن الليل دخلت وكرها وأمضت الساعات جالسة أمام الفرن ينير وجهها بصيص من نار خامدة وهى تحدث الغالى متخيلة أنه معها . تروى له النوادر والقصص وتسأله عما يفعل وكم يكسب وهل لبس البنطلون وارتدى الطربوش المعوج وأخيراً تأتى بجلباب من جلابيبه وتضعه فى حجرها ثم تهزه بحنان وتبدأ تغنى له أغانى المستقبل الزاهرة ودموعها تجرى من مآقيها.

ومضت السنون وكرت الأعياد وأم زيان صابرة تنتظر عودة الغالى . وكانت تخيط له الملابس وتجمع له النقود وتشترى له الحلوى التى يحبها ثم تذهب بكل هذا الى أبيه ليوصلها اليه . فيأخذ الأب هذه الهدايا الثمينة ويوزعها على نفسه وزوجته وأولاده.

واذا سمعت أن شخصاً أتى من « المدينة » تهرع اليه وتسأله عن الغالى فيجيبها أنه على أحسن حال صحة وسعادة . مع أنه لم ير للغالى ظلا فى حياته . وكانت فى بعض الأحيان تتخيل أنه سيعود

اليها بعد أيام معدودة . وتقول ان قلبها أنبأها بذلك وتعين اليوم الذى يصل فيه . فتجهز له الملابس وتصنع له الفطير وتجمع له أعواد الذرة ليجعل منها خيولا مطهمة . وتطلب من رئيس الكلافين أن يرسلوا للغالى على المحطة البغلة ومعها صبى يحمل العصا

واستمرت أم زيان على هذا الحال عشر سنين كاملة تحيا حياة الأحلام ..

وأخيراً تحقق الحلم وجاء الاب يعلم الجدة بأن حفيدها الغالى سيحضر صباح الغد فقابلت الخبر بذهول كاد يفقدها الصواب . ولكن سرعان ما استعادت رباطة جأشها وانحلت عقدة لسانها عن سيل منهمر من الاسئلة لم يدر الرجل عن أيها يجيب

وهرعت أم زيان لساعتها الى الفرن فجهزت لحفيدها طعاما شهياً وانتقت له من بين أعواد الذرة التى كان يلعب بها عوداً صغيرا متيناً طويلا أعدته له فرساً مسرجاً . ثم اغتسلت وتكحلت ولبست الجديد من الثياب وأمضت الليل كله ساهرة تدور فى الغرفة لا تعرف ماذا تفعل مع شعورها بأن هناك عملا كبيراً عليها أن تؤديه . ثم خرجت قبيل الفجر الى الدوار وجلست أمام بابه مترقبة ظهور الغالى على بغلته المطهمة . ولكن النوم عاجلها فلم تستفق إلا على حركة البهائم وهى خارجة الى الغيط

وأخيراً ظهر أمامها الاب وبجواره فتى فى السابعة عشرة له وجه نحاسى خشن البشرة كامد اللون مملوء ببثور الشباب يلبس الجلباب والمعطف والطربوش وله شارب أخضر قذر . فتقدمت أم زيان فى سكون وسألت الاب قائلة :

— ألم يحضر الغالى يا بنى

فالتفت اليها ضاحكا وقال وقد أشار لها على الفتى :

— ومن يكون إذن هذا ؟

فرفعت أم زيان قامتها المنحنية وحملقت فى الفتى طويلا والفتى أمامها يبتسم ابتسامة الخيلاء ودنت منه وهى تسائل نفسها بصوت مرتجف وعينين رامشتين ..

— أيكون هذا هو الغالى ، هل هذا ممكن .

فأجابها الأب قائلا :

— وهل كنت تظنين أنه سيظل طفلا صغيراً مدى الحياة؟

فتقدمت أم زيان نحو الفتى واحتضنته طويلا ودموعها تنهمر على وجهها ... ومن ثم عادت به الى حجرة الفرن وقدمت له الطعام والحلوى . وكانت تحدثه عن حياتها منذ أن فارقها وكيف كانت تفكر فيه دائماً ، وكيف كانت تترقب كل عيد مجيئه لزيارتها . ثم جعلت تروى له حوادث الطيور والبهائم وما جد منها

وما اختفى . ثم استعادت أمامه ذكريات الماضى حينما كان طفلا وذكّرته بحوادث شقاوته ... وفى هذه اللحظة وقع نظرها على الحصان المصنوع من أعواد الذرة . فتراجعت . ونظرت الى الفتى فاذا به ينظر بغرابة واشمئزاز الى هذا المكان وكان مرتسما على وجهه شىء من التأفف والانزعاج قليل الكلام له صوت خشن غليظ وحركات شاذة جافة . فحارت أم زيان فى أمره كيف ترضيه وتدخل السرور على قلبه . وقامت مهرولة نحو صندوقها وبحثت فيه عن شىء يليق أن تقدمه له فلم تجد الا بضعة قروش جمعتها وذهبت بها اليه ووضعتها فى يده وهى تقول :

— خذ ياغالى هذا المبلغ وفرفش به نفسك

ففتح الشاب يده وألقى نظرة باردة على النقود ثم أخذها ووضعها فى جيبه ولم يجب . وبعد قليل قام مستأذناً ، وذهب من فوره الى الغيط ليراقب الفتيات وينشد معهن الاغانى الريفية تاركا جدته بمفردها فى الفرن تحدث نفسها بخجل قائلة :

— هل هذا هو الغالى .. هل هذا هو الغالى ابنى وحبيبى الصغير .. كلا ليس هو .. انه غريب عنى كما أنا غريبة عنه ..

ولم يعد الغالى اليها بعدهذه الزيارة اذ كان يمضى نهاره وليله متنقلا بين الغيط والمحطة يغازل الفلاحات ويغنى معهن . أو يدخن

الجوزة ويحتسى الخمر مع أمثاله الشبان ويذهب فينام فى بيت أبيه

***

وطال انتظار أم زيان على غير جدوى . وجف الفطير المثلث الذى صنعته خصيصاً له ... ومرت الايام وهى تسمع عن الغالى ولا تراه

وأخيراً دخل عليها الأب فوجدها أمام الفرن محتضنة جلبابا قصيراً من جلاليب الغالى الطفل وعوداً جافا من الذرة ـ حصانه القديم الذى كان يلعب به ـ وهى تقبلها وتبكى فعجب الرجل لامرها وبادرها بقوله :

ـ أتبكى وقد عاد اليك الغالى

فرفعت رأسها ونظرت اليه باستسلام ويأس وقالت :

— لقد مات الغالى من وقت طويل يابنى .. مات منذ أن فارقنا الى المدينة . . .

الى الجنة

الى الجنة

— ١ —

حزن الشيخ سُويلم على وفاة أبيه الشيخ نوّار حزنا عظيما إذ فقد فيه مثلا أعلى للابوة ومثالا كاملا للتقوى

لقد ظل الشيخ نوار شيخاً لبلدة الدهارشة زهاء الثلاثين عاما وكان معروفا بين أهلها بطيب قلبه وورعه وحبه للعدل . فأحبه الجميع وأخلصوا له وظلوا على ولائه حتى توفاه الله فى سن السبعين . وكان للشيخ نوار زوجة أخلفت له ذرية كبيرة ولكن الموت عاجلها وعاجل ذريتها من بعدها ولم يبق له غير ابنه سويلم فخصه بكامل عنايته . وأقام على تعليمه وتهذيبه حتى بلغ الثامنة عشرة . فأتى له فى أول الأمر بالشيخ « مصيلحى » المقرىء المعروف فى القرية ليعلمه القراءة والكتابة ويحفظه القرآن . فلما حفظ القرآن وجوّده أرسله الى « كتّاب البلدة » ليتعلم مبادىء العلوم . ومكث الفتى فى الكُتّاب زهاء ثلاث سنين لم يحصل اثناءها على قليل أو كثير . فأخرجه أبوه منه . وعكف يلقنه بنفسه مبادىء بعض العلوم الازهرية بطريقة ناقصة مشوشة . وكان

الشيخ يرغب أن يلحق ابنه سويلم بالازهر لينال ما أخفق هو فى نيله ولكنه عاد فتذكر خيبته . وقامت فى نفسه ثورة صامتة على مشايخ الازهر الذين أسقطوه فى الامتحان ظلما — على حسب دعواه — فأنف أن يزج ابنه فى المأزق الذى زج فيه نفسه من قبل . وقنع بتعليمه ما كان عالقاً فى ذهنه من العلوم التى درسها .

وكان الشيخ نوار من الرجال المتعصبين للدين يحيى حياة التقشف . وشب سويلم — طفلا وغلاماً وشابا — فى بيئة أبيه وتحت رعايته وارشاده . لايرى حوله الا الصلاح ولا يسمع الا عن الحياة الاخرى وما فيها من نعيم مقيم . فاتقدت فى قلبه منذ الصغر جذوة الدين وأخذت تزكو رويداً حتى صارت موجة كبيرة من اللهيب تغمر حياته بأكملها .

ومضت الايام والشيخ سويلم دائم التفكير فى أبيه يتحدث عن مناقبه امام الناس على اختلاف درجاتهم . فلا يهمه أن يستوقف فلاحا ذاهباً بحماره الى الغيط ويأخذ فى سرد أخبار تافهة عن أبيه . ولا يستحى أن يجمع الاطفال والصبيان حوله فيحكى لهم نبذاً عن حياة والده . وكان يذهب الى قهوة المحطة القريبة من بلدة الدهارشه فيلقى المحاضرات الطويلة فى تقوى والده ...

وكان يتردد فى أغلب الاوقات على منزل الشيخ مصيلحى — أستاذه القديم — أو يذهب الى مصطبته بجوار الجامع . والشيخ

مصيلحى مقرئ فقير أربى على السبعين . يقرأ القرآن للناس باجر. يحترمه الشيخ سويلم و يحفظ له فى قلبه جميل التلميذ المخلص لاستاذه القديم وكان حديث الاثنين يدور حول مناقب الشيخ نوار وسيرته الطيبة وتفانيه فى حب الدين . فكان الشيخ سويلم يستمع لحديث شيخه بانتباه وهو جالس قباله وعيناه البراقتان مغمورتان بالدموع ووجهه الطويل الأسمر ذو اللحية السوداء يبدو عليه الحزن والاستسلام .

وجلس الشيخ سويلم مرة جلسته المعهودة على المصطبة وامامه الشيخ مصيلحى وكانا يتحدثان كالمعتاد عن المرحوم الشيخ نوار . وكان الشيخ سويلم هذه المرة قليل الكلام . وقدجلس متربعاً أمام أستاذه يحملق فى وجهه بعينيه [redacted] من بره لايشك لحظة أنه منتبه أشد الانتباه لحدثه . ولكنه اذا دقق النظر اليه طويلا رأى هاتين العينين المفتوحتين تحملقان حملقة الضرير لاتبصران شيئا ، تتيهان بصاحبهما فى وادى الاحلام ... وانه لكذلك اذ تكلم مقاطعاً أستاذه بهدوء قائلا :

— ياترى أين أنت الآن يا أبى ..

فتوقف الشيخ مصيلحى عن الكلام وكان يروى لتلميذه حادثة وقعت له مع أبيه . وظهر عليه شىء من الامتعاض اذ عرف أن الشيخ سويلم لم يكن يستمع له . وكرر الشيخ سويلم سؤاله بلهجة

أشعرت الشيخ مصيلحي بعودته الى حالته الاولى . فأجابه وهو يمشط لحيته البيضاء بأصابعه :

— فى الجنة بلا ريب

فأصغى الشيخ سويلم لكلام أستاذه بانتباه . وبعد صمت قليل قال :

— أيذهب الى الجنة من الآن ، ألا ينتظر يوم الحساب .

فاعتدل الشيخ مصيلحى فى جلسته وتأهب للرد على سؤال تلميذه وقد ازدادت رعشة صوته لتوهمه انه مقدم على حل معضلة دينية لم يصل الى حلها تلميذه الفقيه فقال :

— اسمع يابنى . اذا مات المرء فارقت روحه جسده وذهبت من فورها الى مكانها المخصص لها فى العالم الثانى . فأما الى النار تنال نصيبها من العذاب وإما الى الجنة تنال قسطها من النعيم . وتظل هكذا حتى يوم القيامة فتعود الى جسدها من جديد حيث تنتظر الحساب الاكبر .

— إذن روح والدى فى الجنة

— بلا ريب

وظهرت على محيا الشيخ سويلم أمارات الرضى فانبسطت أساريره وقرت عيناه . ثم قال :

— الجنة ... الجنة ... ألا بربك حدثنى عنهـا ياعم الشيخ مصيلحى .

فتنحنح الشيخ مصيلحى طويلا وبدأ يستجمع تفكيره حلا لهذا السؤال العسير ... ماهى الجنة ... ماهى الجنة ... لقد كان يعرفها بشعوره أكثر من معرفته لها بعقله . وبعد صمت طويل بدأ يفيض بما عنده من أوصاف شائقة للجنة وما فيها من هنـاء ورخاء . فأخذ يصف المآكل الشهية ولعابه يسيل جزافا فى حلقه . ثم القصور الشاهقة والملابس الثمينة ثم النوم المتواصل والراحة الأبدية ..... الى آخر ماهنالك من أحلام ومشتهيات . وكان الشيخ سويلم مصغيا بانتباه لاحد له مأخوذاً بتلك الأوصاف الرائعة . وكيف لايؤخذ المسكين بأوصاف أستاذه عن الراحة والنوم المتواصل وهو الذى يكد طول يومه يفلح فى الارض ليكسب منها عيشه . كيف لايفتر ثغره ولا يسيل لعابه لحديث المآكل الشهية وهو الذى لايتناول اللحم الا مرة فى الاسبوع ولا يعرف من الفاكهة الا البلح والبرتقال . كيف لاتبرق عيناه لوصف القصور وهو الذى ينام على سطح الفرن فى بيت حقير ... وتنهد من أعماق قلبه طويلا وقال :

— من لى بالجنة ياعم الشيخ مصيلحى أنتقل اليها لساعتى

— ستذهب اليها بعد عمر طويل يابنى

— ما أمر طول العمر . والله لو خُيرت بين الاقامة فى هذه الدار و بين الانتقال الى العالم الآخر لفضلت الثانى عن الاول . فأهلا بالموت ينقلنى الى عالم الهناء والسعادة

— لكل أجل كتاب يابنى . وهذا لايعلمه الا الله

— ٢ —

ومن هذا الحين سكت الشيخ سويلم عن ذكر ابيه واستولت عليه فلسفة جديدة شغلته عن كل شىء آخر هى فلسفة العالم الثانى بجنته الواسعة حيث الهناء الدائم . وعظمت رغبته فى معرفة الجنة وما فيها من نعيم . فكان لايمل سؤال الشيخ مصيلحي عنها . حتى اذا نفدت معلومات استاذه ولم يجد مايقوله لتلميذه غير التكرار قصد الشيخ سويلم أئمة الجوامع يطوف عليهم فى مساجدهم ويلوذ بجماعة الأولياء ومشايخ الطرق يحضر حلقات أذكارهم و يغشى مجالسهم . كل هذا ليحظى منهم بحديث عن الجنة وحياة الخلود فى الآخرة . وتطورت فلسفته الى صوفية قوية طبعت نفسه بشهوة عجيبة للموت وزهد كبير فى الحياة . فكان اذا رأى جنازة أو سمع عن شخص مات ندب سوء بخته لوجوده فى الدنيا يقاسى آلامها ... وطالما وقف بجوار شريط السكة الحديدية ينتظر مرور القطار ، وفيه رغبة خفية تدفعه لأن يتخطى الشريط وقت مجىء

القطار . ولـكن جلجلة ذلك الشيطان الحديدى وتلك الهيبة المفزعة التى تتقدمه كأنه جيش بأسره يتعقب عدواً هاربا كانت توقظ الشيخ سويلم من أحلامه الصوفية فيعود اليه حب البقاء ويعدو هاربا بمنتهى قوته .

ووقف عدة مرات امام الترعة يطيل النظر اليها حالماً يرى فيها سفينة نجاته من عالم الآلام ولـكنه كان يتردد ويعود الى داره مكتئبا . وزادت همومه وأضحى عمله الذى كان يقوم به قبلا بصبر وجلد شغلا شاقا لايقوى على ادائه . ونظر الى داره التى ولد وترعرع فيها والتى كانت من قديم مهد راحته وهنائه ، فرآها سجناً تضيق به نفسه . وبالاجمال وجد كل شىء امامه قد تغير واكتسى بالسواد فحديث الشيخ مصيلحي أضحى تافهاً مملا يحرك ثائر أعصابه ، ومجالس أئمة المساجد وحفلات مشايخ الطرق أصبحت سخيفة ممقوتة . ولم يجد سلوته الا فى زيارة القبور . فكان يقصد قبر والده ويجلس قباله يتيه فى بيداء خياله يريد أن يشارك أرواح الموتى شعورهم بحياتهم فى العالم الآخر .

— ٣ —

وخرج الشيخ سويلم مساء أحد الايام من داره على غير عادته وكان ملتحفاً بزعبوطه القديم لاتظهر منه الا عيناه الحائرتان

يمشي مشية فيها حزم وارادة . وسار فى الطريق العمومى مجتازاً المحلات العامة ثم انعطف على حارة مظلمة كثيرة التعاريج خرج منها بعد قليل الى شبه غيط مهجور يتوسطه مستنقع كريه الرائحة فى نهايته دار مهدمة لايظن المار بها انها مأهولة لولا قنديل له نور ضعيف معلق على بابها . وكان الباب غير موصد فولجه الشيخ بسرعة كأنه يعرف الطريق من قبل . وبعد أن اجتاز ممراً ضيقاً وجد نفسه فى قاعة سمع فيها شبه ضجة وهرج ، ورأى قوماً معتلين بعض الدكك الخشبية بعضهم متربع والبعض ممدد والآخرون جالسون القرفصاء يدخنون الجوزة ويشربون القهوة. ولم يكن ينير القاعة الا مصباح واحد من البترول ضعيف النور . فلم يستطع الشيخ سويلم أن يتبين الجالسين بوضوح ولكن ملامحهم البادية من خلال النور أشعرته بقشعريرة اهتز لها جسمه . لم يكن هذا المكان غير مأوى لقطاع الطرق واللصوص وغرزة من غرز الحشيش . ظاهره قهوة بلدية بريئة من كل شائبة . لم يكد الشيخ سويلم يطأ عتبة الباب ويدور بعينيه فى وجوه الجالسين حتى هدأت الجلبة ورفع الجميع أبصارهم اليه يفحصونه بعيون مستريبة فيها عوامل الشر كامنة . وانتشرت همهمة فيما بينهم . ونظر بعضهم الى بعض يتساءلون ويبتسمون فى ازدراء . وجمد الشيخ سويلم فى

مكانه وقد ناله الجزع وعاوده التردد والجبن . وكاد يهرب الى الخارج لولا أن رأى رجلا مقبلا نحوه ، قصير القامة نحيل الجسم يتظاهر بالوداعة ، له عينان غائرتان تحت أهدابه الغليظة . أقبل الرجل عليه مسلماً مرحبا . وأفسح له مكاناً على طرف احدى الدكك التى بجوار الباب ودعاه للجلوس ولكن الشيخ أصر على الوقوف . فسأله الرجل عن سبب مجيئه فقال سويلم بصوت متهدج :

— أريد مقابلة عم خفاجة

فسكت صاحب القهوة برهة وجيزة وهو يفحص الشيخ فحص خبير ثم سأله :

— هل تريده فى مسألة خاصة ؟

— أجل ، وفى أمر يتعلق بمهمة خطيرة

فقاده الرجل الى حجرة داخلية يفصلها عن هذه الحجرة ممر طويل مظلم ببابين خشبيين . وكانت حجرة صغيرة تضيئها شمعة واحدة قاربت أن تنتصف موضوعة على حافة نافذة ضيقة . وكان نسيم الليل يهب من الخارج متسللا من هذه الكوة يداعب لهيب الشمعة فترقص على أثره الأشباح داخل الغرفة بشكل موحش مخيف . وكان عم خفاجة جالساً القرفصاء أمام زميل له ومعتمداً بظهره على حائط الغرفة . وكان ضئيل الجسم لكنه صلب العود .

له صوت أجش وعينان ناريتان كعيني النمر

ودخل الرجل وأخبر عم خفاجة بأن الشيخ يريده في أمر خطير .

وفي لحظة كان الشيخ سويلم وعم خفاجة منفردين وجهاً لوجه . وأخذ عم خفاجة يفحص الغريب فحصاً دقيقاً والشيخ يجتهد في ضبط عواطفه والتغلب على ضعفه . وأخيراً تكلم خفاجة مداعباً :

— ما الذي أتى بك يا شيخ سويلم ؟

فارتجف الشيخ سويلم وقال :

— أتعرفني ؟

— ومن لا يعرف الشيخ سويلم الورع ابن الشيخ نوار شيخ بلدة الدهارشة رجل التقى والصلاح . هل أرسلك أحد . ومن دلّك عليّ هنا ؟

فابتلع الشيخ ريقه وجلس مضطرا على أرض الغرفة وتكلم وهو ينظر أمامه نظرا تائهاً :

— لقد كنتُ أسأل في الخفاء عن الشخص الذي أطلبه لمهمتي حتى دلوني عليك . وكم كابدت في ذلك من مشاق

— أهلا بك ، وما هي مسألتك ؟

— مسألتي مسألة قتل تستوجب المهارة والحذر . أأستطيع الاعتماد عليك

فقال خفاجة مدهوشا :

— أنت تريد إزهاق روح من الارواح !

فصاح سويلم من أعماق قلبه :

— بل أريد خلاصها من عالم البؤس والشقاء

فهز خفاجة رأسه مبتسما وقال :

— لم أفهم مرادك بعد . . . أوضح

— مسألتى واضحة ، أريد أن أدفعك لقتل انسان نظير عشرين جنيها تنالها منى هى ثروتى التى لا أملك سواها

— هى قيمة الاربعة قراريط التى بعتها منذ عهد قريب ؟

— أراك مطلعاً على كل شىء . . نصفها أعطيها لك الآن والنصف الآخر تأخذه بعد القتل مباشرة . . . ولكنى أشترط شرطاً

— وما هو ؟

— أن تكون الضربة فى موضع مميت ، وقاضية على المقتول لساعته

— سيخر الشخص صريعاً فى لحظة واحدة

— عوفيت يا عم خفاجة . . . اتفقنا ، هاك المبلغ .

وناوله صرة النقود ، وصمت فترة وجيزه اكتسب فيها وجهه

مظاهر الطمأنينة والاستقرار على أمر معين . ثم تكلم بهدوء لايشوبه إلا حدة بسيطة تفلت بالرغم منه فى سياق الحديث . وقال :

— سوف يكون غريمك فى دارى مساء الغد ، ولا يتركنى إلا بعد صلاة العشاء بساعة كاملة وسيتخذ طريق الجرن القديم ثم يمر على ساقية أبى خربوش ومنها يسير فى غيط النخيل ، ناحية مهجورة تصلح لعملك . أليس كذلك ؟

— كل الصلاح

— وسيحمل معه العشرة جنيهات الباقية . سأعطيها له لأنى مدين له بها

— ألهذا الامر تريد قتله ؟

— هذا سرى لا أبوح به

— شأنك وما تريد

— سيكون فريداً بلا تابع ، ومترجلا بلا دابة ، ملثم الوجه بشال أبيض وملتحفاً بزعبوط أسود

— وما اسمه ؟

— ستعرفه بعد القتل . أما الآن فلا . . . سوف تحضر بالقرب من دارى وتتربص له فاذا ما خرج تبعته بحذر

فصمت خفاجة طويلا ثم أحدق بعينيه الناريتين في وجه

الشيخ سويلم وقال :

— أما اذا كانت هناك مكيدة تريد أن توقفنى فيها .

فقاطعه سويلم غاضباً وقال :

— حاشاى أن أفعل ذلك

ولكن خفاجة اتم كلامه قائلا :

— فأقسم برأس أبى لتكونن ضحيتى

— ٤ —

وفى مساء اليوم التالى بعد صلاة العشاء بساعة خرج من دار الشيخ سويلم رجل ملثم الوجه بشال أبيض وملتحف بزعبوط أسود يمشى بخطوات سريعة متزنة كأنه على ميعاد هام يخشى ضياعه . واتجه نحو طريق الجرن القديم ثم تابع المسير الى ساقية أبى خربوش ومنها انعطف الى غيط النخيل . ولما دنا من الغيط المذكور تمهل فى السير قليلا وظهر عليه شىء من التردد . . . ولكنه عاد الى متابعة سيره بجد واهتمام حتى اذا ما توسط الغيط خرج له من بين النخيل خفاجة بنبوته الصلب وهوى على رأسه بضربة من الخلف أصابته فى وسط رأسه فترنح الرجل على أثرها وخر صريعاً وهو يتمتم بكلمات متقطعة :

— الى الجنة . . الى الجنة . .

صباحة

صباحة

كان الفلاح عبد السميع جالساً على حجر عريض ملقى بجوار أحد المخازن المهجورة ينظر ناحية السكة الزراعية ، وهى طريق ممهد يشق أرض حسن أغا ويمتد فى الاطيان التى بعدها حتى محطة السكة الحديدية ويقوم على حافتيه صف طويل منظم من أشجار البقس المستوية السيقان . وكانت نظراته الحائرة تدل على أنه يفتش عن شخص بين المارين من صبيان يقودون بهائمهم ورجال حاملين فؤوسهم على أكتافهم ونساء خلف حميرهن . وبغتة أشرق وجهه وانفرج فمه عن ابتسامة عريضة ظهرت تحتها أسنانه البيضاء المنتظمة . وقام من فوق الحجر فاذا به شاب طويل القامة عريض الاكتاف قوى العضلات له ملامح ريفية جذابة بعينين عسليتين ساحرتين . وكان صدره الضخم العارى بشعره الكث يظهر جليا من فرجة صداره المفتوح . وكان يتمنطق على جلبابه الازرق القصير بحزام من الكتان مشدود على خاصرته شدا زاد فى رفع جلبابه عن الحد المألوف فظهرت ركبتاه الكرويتان فوق ساقيه الضخمتين . وصاح مناديا ومكررا النداء قائلا :

صابحة ، يا صابحة ، انت يا بنت يا صابحة

والتفتت الفتاة جهة الصوت فألفت عبد السميع يناديها وهو مقبل نحوها . فعرفته . وافتر ثغرها عن ابتسامة هادئة أخفتها تحت طرحتها السوداء . وكانت تسير خلف حمار عليه مقطفان فارغان . فضربته بالعصى التى فى يدها ضربات متواليات عرف الحيوان معناها فقفز يجرى نحو الدار من تلقاء نفسه . وخرجت هى من السكة الزراعية واتخذت طريقاً منعرجا بجوار القناة الصغيرة لتستقبل عبد السميع فى منتصف الطريق . وكان الانفعال ظاهرا عليها رغم هدوء طبعها وقدرتها على ضبط عواطفها فجعلت تبالغ فى ستر نصف وجهها الاسفل بطرحتها . وتقابلا وجهاً لوجه ثم سارا بلا كلام ناحية المخزن المهجور حتى بلغا بابه . ووقفا بجوار الحائط العريض القائم هناك . وجعل عبد السميع ينظر الى الارض يفكر فيما يجب أن يقول . وقد اكتسب وجهه بعض سيماء الكآبة . وبعد برهة تكلم :

— لم أرك منذ أيام ياصابحة عند حسن آغا . فماذا حصل . هل تشاجر معك أحد أو انقطعت من تلقاء نفسك لسبب أجهله ؟

فتركت الفتاة طرحتها تسقط من على وجهها ، وجعلت تنفض تراب جلبابها وهى صامتة . ورفع عبد السميع بصره اليها وجعل يحدق فيها بشرَه .

وكانت صابحة فتاة ريفية لاتخلو من جمال . لها ملامح دقيقة بعينين مكحلتين جذابتين . فيهما صفاء وسهوم . طاهرة القلب مخلصة متوقدة الذهن صريحة . قوية فى ايمانها شديدة الثقة بنفسها. تعارفت بعبد السميع فى منزل حسن آغا حيث تشتغل عنده اجيرة تقوم له بمهام الخدمة بينما عبدالسميع يشتغل كخادم خاص وسكرتير . ولسيده ثقة كبيرة فيه . هنالك تعارفا وتحابا وقوى هذا الحب حتى عرف به بعض أقارب الفتاة فأخبروا والدها به . وكان أبوها يحتقر عبد السميع ولا يراه كفؤاً لابنته . وكان يرشح لها ابن شيخ البلدة ، فتى نظيف الهيئة له مقام رفيع بين أهل بلدته ولأبيه ثروة لايستهان بها فى نظره . وشجعه على هذا الترشيح مارآه من اعجاب هذا الفتى بابنته واظهار رغبته فى التزوج منها . فلما علم بحب عبد السميع زاد احتقاره له وامتلأ قلبه كراهية وحقداً عليه . وعدّ ذلك الحب اهانة موجهة الى شرفه . وجاء عبد السميع خاطباً فلم يجد منه غير الازدراء والتهديد . وعاد عبد السميع الى دار سيده والحزن يتبعه والهمّ يحاصره ولكن بدون أن يتطرق اليأس الى قلبه . وأخفى عن صابحة ماصادفه من فشل وعوّل على ارضاء والدها بأية وسيلة ليحصل عليها . وكان عبد السميع محبوباً من سيده للين عريكته ونشاطه وأمانته . معروفا عند الجميع باستقامته وقيامه بالواجب على الوجه الامثل .

وطال صمت صابحة وعبد السميع ينظر اليها نظرات تنم عن حب عميق متغلغل فى ثنايا قلبه . وأعاد عليها السؤال على وجه اخر فقال :

— أكانت غيبتك لمرض . . ومتى تعودين ؟

وأخيراً تكلمت صابحة وهى تنظر الى الارض ووجهها يحمل طابع الحزن والمرارة وقالت :

— لن أعود الى الخدمة عند حسن أغا

فلمعت عينا عبد السميع بوميض غريب وتكلم بصوت متهدج قائلا :

— لن تعودى الى الخدمة .. هذا مستحيل .. من يقول ذلك

— أبى

— لماذا

— لأنه علم بما بيننا من محبة

— لذلك يريد أن يفصل بيننا . .

— نعم

— محال

— وكيف محال ياعبد السميع وقد . .

ثم صمتت ولم تتم جملتها . وأدرك هو ما يجول فى نفسها فتكلم فى تهكم وغيظ :

— أتمي يا صابحة جملتك ولا تخجلى. تكلمى . قولى . . إنك قد صرتِ خطيبة لابن شيخ البلدة . . ولكن أقسم لكِ . .

وهنا اختنق صوته واحمرت عيناه ونفرت عروق رقبته ثم أتم كلامه

— أقسم لكِ أن هذا الزواج لن يحصل أبدا . . لن تصبحى زوجة لأحد غيرى مادمت على قيد الحياة .

وكانت هذه أول مرة سمعت فيها صابحة عبد السميع يتكلم بهذه اللهجة ورأته بهذا المظهر الوحشى فشعرت بخوف منه وحولت نظرها عنه بعجلة . . . أهذا هو عبد السميع الهادئ الرزين الذى من خلقه الطاعة . والذى أمضى حياته حتى هذه الساعة ولم يشتبك فى مشاتمة أو مشاجرة .

وكان عبد السميع يتنفس بشدة ويرتجف . فلما زالت نوبته وعاد الى سابق حاله تكلمت صابحة بصوتها الهادىء وكأن الطيبة والسذاجة والاستسلام تسيل من كلامها

— وماذا تريد منى أن أفعل ياعبد السميع . . أتريد أن أخالف رأى أبى . وهل أستطيع أن أفعل ذلك .

— إذن أنت لاتحبيننى ياصابحة

فصمتت الفتاة وأجهشت بالبكاء دفعة واحدة . فشعر عبد السميع كأن خنجراً حاداً يحز فى قلبه . فأقبل عليها بشغف و قادها الى داخل المخزن المهجور وأجلسها على كومة من التبن . وجعل يكفكف دموعها ويكلمها بلهفة وتوجع .

— لاتبكى ياصابحة . إن بكاءك يقطع قلبى . . إنى واثق من حبك لى . . ولكن هذه الخطبة آلمتنى ألماً كبيراً . وسأسعى جهدى فى سبيل ابطالها . . . سأحادث أباك فى أمر زواجى منك وسيقبل . . . سيقبل

فالتفتت اليه صابحة وعيناها مغرورقتان بالدموع وسألته قائلة:

— وكيف يقبل ياعبد السميع . ألم تخطبنى من قبل فكان نصيبك الفشل . أتظن أنى أجهل ذلك

ففتح عبد السميع فاه يريد الكلام . ولكنه غص بريقه فلم يفه بحرف . وظل متحيراً . وعيناه تلمعان . وأخيراً فلتت منه هذه الجملة :

— ولكن عندى الوسيلة هذه المرة

— أية وسيلة ؟

فصمت متردداً وحدقتا عينيه لايستقر لهما قرار . ولكنه

اخفض صوته والتفت يمنة ويسرة وأسر فى أذنها قائلا :

— عندى المال . عندى المهر . هذه هى الوسيلة التى تنيلنى إياك .

فمسحت صابحة عينيها وأنفها بطرف كمها وأشرقت على وجهها ابتسامة وضاءة وسألته بلهفة :

— عندك المهر . . عندك الثلاثين جنيها

— عندى . عندى . عندى هنا فى جيبى . أتريدين أن تريها.

ثم أدخل يده فى جيبه وأخرج رزمة من الاوراق المالية . وجعل يعدها أمامها وهو يرتجف ثم التفت اليها وقال :

— هذا المال مالكِ ياصابحة . مهركِ الذى سوف أقدمه لابيك . خذيه فى يدك وتأمليه . . خذيه . . خذيه

وألح عليها بأن تأخذ المال فى يدها وتتأمله . . ولكن صابحة لم تمد يدها . واختفت بغتة ابتسامتها واكتسب وجهها مظهر التفكير وبعد لحظة سألته بلهجة الجد قائلة :

— ومن أين لكَ هذا المال ياعبد السميع

فعقد عبد السميع جبهته وقال لها مستاءاً :

— ليس لك أن تعلمى من أين جئت بهذه النقود . لقد حصلت عليها وكفى وهى ملكى وسأدفعها لك مهرا .

وتكلمت صابحة كأنها تناجى نفسها بصوت مسموع :

— ليس لك بهائم فنقول انك بعتها وهذا ثمنها . وليس لك أقارب فنقول انهم أقرضوك . وليس سيدك حسن أغا بالكريم حتى نظن أنه أغدق عليك من ثروته هذا المبلغ . . .

ثم رفعت رأسها وحدقت فيه بعينيها الصغيرتين وقد اكفهر وجهها واقتربت منه وهى تقول :

— كلا لا يمكن ذلك . أمكن . . ولكنك ترتجف .

ثم تبينت لها الحقيقة فصرخت قائلة :

— هذا المال ليس لك ولن تتصرف فيه مطلقاً . انه مال حسن أغا . ان هذه الثلاثين جنيهاً هى عينها التى سُرقت من منزله فى الاسبوع الماضى .

فتلبد وجه عبد السميع بسحابة كثيفة . وأخذ يكرر قوله بتلعثم :

— أنا سارق ... أنا . أنا

— إذن من أين لك هذا المبلغ ؟

فتلفظ عبد السميع بألفاظ متقطعة غير مفهومة وأصبح منظره بشعاً . ولكن صابحة اقتربت منه وأخذت تلاطفه قائلة :

— لا تغضب يا عبد السميع . إنى أحبك واريد لك اخير أرجع النقود لصاحبها . انها نقود لا خير فيها ولا بركة . أعدها يغفر الله لك ذنبك يجب . يجب ياعبد السميع . انك رجل طيب أمين . فلا تلطخ سمعتك . عدنى بأنك ستعيدها بدون أن يشعر صاحبها

وكانت صابحة تتكلم والدموع تتساقط على وجنتيها . وأجابها عبد السميع قائلا :

— لن أعيد النقود الى صاحبها . انها أصبحت فى حوزتى وسأدفعها مهراً لك

فأخذت صابحة تشهق بالبكاء وهى تصيح بصوت مخنوق قائلة :

— لا أقبل مهرى نقوداً مسروقة . ان الله لن يبارك فى زواجنا . لا أقبل . لا أقبل

مال عليها وأخذ يكلمها بشغف :

— وأنا لا أستطيع أن أتخلى عنك يا صابحة . لا يمكنى أن أتصور أن شخصاً غيرى سيتزوجك . لقد سرقتُ النقود من أجلك . . سرقتها من حسن أغا سيدى وولى نعمتى ولكنها سرقة عادلة . انى فقير معدم وضعيف الحول والقوة بينما غريمى الذى

يد أن يتزوجك غنى بماله وجاهه . . أنا المغلوب وهو الفائز
أى سلاح تريدينى أن أحارب به . لقد ارتكبت هذا الفعل المخزي
لكنه فى نظرى شريف مادام سينيلنى إياك ياصابحة . لاتستطيعين
ن تتصورى مبلغ ألمى حينما علمت بخطبتك لقد كدت أجن
أمضيت ليلة طويلة وأنا جالس القرفصاء أمام باب حجرتى
عيناى جاحظتان لاتتحركان . . وبغتة طرأت علىّ الفكرة .
لا أدرى من أين هبطت . . وكنت أعلم أن سيدى حسن أغا قد
تسلم مبلغ خمسين جنيها من المستأجرين منذ يومين فقط . وأن
المبلغ مازال فى خزانته فقمت فى الحال وأنا أقول لنفسى ان مبلغ
الثلاثين جنيها لاينقص من ثروة حسن أغا شيئا وليس حراما أن
أسرقه منه وهو الرجل الشحيح الذى يكنز النقود فى البنك بفائدة
ويسلف الفلاحين بالربا الفاحش . أما لدى فهذا المبلغ هو سعادتى
بأكملها . . وكل هذا من أجلك ياصابحة فسامحينى فان الله سيسامحنى
بما سأقدمه له من فروض العبادة كفارة عن سيئتى هذه . سيئتى
الوحيدة التى اقترفتها والتى لن أقترف سواها فى حياتى .

وكانت صابحة مازالت تبكى بصوت مختنق . وشمرت بأنفاس
عبد السميع الحارة تقترب من وجهها حتى لاصق فمه خدها . ودس

الاوراق الماليـة فى يدها وهو يقول لها بصوت متغير فيه بحـة كفحيح الافعى

— انى أحبك وأعبدك ياصابحة . ولا أطيق العيش فى الحياة بدونك مطلقاً . فأنت روحى ونور عينى ومهجة فؤادى .. هذه نقودك فخذيها من الآن . خذيها فهى لك وتصرفى فيها كما تشائين.

وأحست صابحة بقبـلة حارة تنطبع على خدها . فكأنما هى قرصة الثعبان فى ألمها . ولمست يدها النقود الورقية فكأنما لسعتها نار حامية . فصرخت وشدت نفسها منه مبتعدة وهى تقول :

— ابتعد عنى ياعبد السميع . أتركنى ولا تقترب منى وإلا صرخت مستغيثة بأعلى صوتى

ولم يكن أمامها فى هـذه الآونة عبد السميع الهادىء الطبع الرزين . بل كان شخصاً آخر لم تقع عليه عيناها من قبل . آدمى فى هيئة حيوان مفترس . عيناه جذوتان من النار . ووجهه قطعة من الدم تعلوه طبقة داكنة من غبار الفحم . تنم ملامحه المخيفة عن انقلاب نفسيته السريع . لقد سمع كلامها ولـكنه لم يفهمه وظل يقترب منها وهى تبتعد عنه . وفتحت فمها تريد الصراخ ولكنه سبقها وأمسكها بين ذراعيه يريد احتضانها بالرغم منها وكان يهدر كالثور بأقواله الغرامية ، أقوال مفككة تفلت من فمه بلا وعى .

وقامت بين الاثنين معركة شعرت فيها الفتاة أنها مغلوبة فصاحت بأعلى صوتها تستغيث ولكن عبد السميع وضع يده على فمها فقطع صيحتها . واستطاعت فى فترات مختلفة أن ترفع يده وتصرخ بضع صرخات متقطعة وتقول :

— اتركنى . انى لاأقبلك . اذهب عنى . انى أكرهك .. أكرهك ...

وكان هو يجيبها بصوت أجش قائلا :

— لا يمكن أن تتزوجى سواى .. انى أعبدك . ويجب أن تحبينى وتعبدينى .. يجب .. يجب ..

— بل أكرهك . أكرهك . اتركنى يا وحش ..

وأفلتت منها صيحة هائلة رنت فى جوانب المخزن فسُمع لها صدى عظيم . واضطرب عبد السميع اضطرابا كبيرا فخيل له ان الناس ستحدق به من كل جانب وان الشرطة سيأخذونه الى السجن بعد أن ينقذوا الفتاة منه ويسلموها لابن شيخ البلدة .. وارتجف وأحس بشىء جديد يستيقظ فى أعماق نفسه وشعر كأن شخصية أخرى حلت فى جسمه واذا بيده اليمنى تضغط على عنق الفتاة بلا وعى بينما كانت يده اليسرى تكتم أنفاسها وتمنع صراخها . وهو يقول لها مكرراً :

— لا أدعك تتزوجين ابن شيخ البلدة . لن تكوني لسواى مطلقاً . انني أحبك فلن تفلتي من يدى ...

واضمحلت قوة الفتاة بغتة . فتركها عبد السميع فهوت على كومة التبن جثة لاحراك فيها . ووقف الفتى برهة ينظر اليها وهى ملقاة على كومة التبن بدون أن يعى حقيقة مانالها ثم أخذ يعود الى حالته الاعتيادية فاستطاع أن يفهم رويدا ماوقع .. فاذا به يرتجف وينكبّ على جثمانها يفحصها ويهزها ويدعوها بصوت مخنوق . وبغتة صاح قائلا :

— أبدا . أبدا . لست أنا .

ثم أخذ يصرخ وينتحب بأعلى صوته وهو يمرغ وجهه فى التراب بجوارها ويمزق بشرته بأظافره .

وكان حسن آغا يسير متئداً فى سكة المخزن الخرب يقصد الى الجامع من الطريق الاقرب ليؤدى فريضة المغرب . وكان غارقا فى تسبيحاته . يلبس كالمعتاد طربوشه الافطس الذاهب اللون يغطى أذنيه ويلتحف بجبته السوداء وشاله الاجرد . وانه لكذلك اذا بصوت عبد السميع يخترق سمعه بغتة . فتوقف عن المسير ورفع رأسه من على مسبحته وأخذ ينصت باهتمام . وتكرر الصوت بشكل مريع فهرع حسن آغا نحو مصدره . وهو يجر فى قدميه مركوبه الاحمر البالى . فلما اقترب نحو باب المخزن خرج اليه عبد السميع

بزحف على الأرض كالكلب المثخن بالجراح وهو يتأوه تأوها مبحوحا . فسأله حسن آغا بلهفة وعجب قائلا :

— ماذا بك ياعبد السميع ومن أدمى وجهك ؟

فصرخ عبد السميع بأعلى صوته مجيباً وهو يبكى بمرارة وألم :

— صابحة ماتت ياسيدى ، وأنا الذى قتلتها . ادخل فها هى جثتها وهاهى نقودك التى سرقتها منك منثورة حولها .

وعاد الى تخميش بشرته بأظافره وتمريغ وجهه فى التراب وهو يئن أنيناً موجعا . أما حسن آغا فوقف مبهوتاً جازعا . ثم حانت منه التفاتة الى داخل الحجرة فوجد الفتاة ممددة على كومة التبن والأوراق المالية منثورة حولها . فهم بالدخول ، ولكنه رهب الميتة . وأخيراً أغمض عينيه وسار الى داخل الغرفة وأخذ يجمع الاوراق المالية . ثم خرج وجعل يصيح :

— الى السارق .. الى السارق . . الى القاتل الى القاتل

جحيم امرأة

جحيم امرأة

طلب عبد الرسول افندى الموظف بوزارة الماليـة إجازة شهرين — شهـرى يوليو وأغسطس — يقضيهما فى رأس البر وكان فى أشد الحاجة لمثـل هذه الاجازة ليرفه عن نفسه متاعب الاعمال الحكومية ويريح جسده من سهر وعربدة كل ليلة . وعبد الرسول أفندى فتى جذاب الصورة عليه طابع الرجولة فى كل شىء ، قامة طويلة وعينان قويتا النظـرات وأنف أقنى . اكتسب جمال قوامه — الذى يشبه قوام الأغريق القدماء — بممارسته ألعاب الجمباز عند ما كان طالباً فى المدرسة

وفى عصر اليوم الاول من إجازته كان فى رأس البر فى فندق الكرنك المشهور بحسن موقعه وجودة أكله . مستلقياً على كرسى طويل من القماش يستنشق الهواء المنعش برئة عطشى ويتحسس الرمل بأصابع قدميه الحافيتين فى جذل ونشوة . ونام ليلة لاينسى حلاوتها . وفى الغد خرج من الفندق حوالى الساعة ١١ ليجول فى المصيف ومر أثناء طوافه على قهوة « انستاسى » فدخل ليتناول شيئاً من المرطبات . وتصادف أن كانت مائدته بجوار مائدة جماعة مختلفة من السوريين والمصريين كانوا يتناولون « الابيراتيف »

ويلعبون الطاولة . وبينما كان عبد الرسول منهمكا فى شرب مرطبه اذ سمع واحداً من الجمع يناديه ويرحب به . فالتفت فاذا بصديقه الخواجة جبران — صاحب بنك السلفيات جبران اخوان بالموسكى — قادماً ليسلم عليه . فقام مهللا به إذ كانت تربطه به صداقة قديمة نبتت فى بنكه المتواضع الكريم . وبسط الخواجة له يديه وهو يقول :

— اشحال الاخ . الصحة على ما يرام . . أليس كذلك ؟

— معدن يا خواجة جبران . وأنت كيف الاحوال ؟

— نحمد الله يا سيدى

ثم قاده من يده وهو يقول له :

— تعال أعرفك بالاخوان

وتم التعارف فى لحظة . وكان بين الحاضرين رجل أشيب فى الخامسة والخمسين منحنى الظهر بقفا غليظ مجعد . ورأس أصلع وبطن مستكرش مهدل . يلبس قفطاناً أبيض بحزام عريض وسترة عادية . ويدعى الخواجة نعوم . كان يلعب الطاولة باهتمام ويمزمز بين وقت وآخر بجرعات العرقى الفاخر . وبجواره زوجته المدام نعوم . سيدة فى الثلاثين كلها رشاقة وجاذبية وافتتان لا يستقر لها قرار لا فى الجلوس ولا فى الكلام . فهى الشرارة السحرية التى تكهرب جو الاجتماع . وكان مجلس عبد الرسول بجوارها . فأخذ

يتجاذب معها أطراف الحديث برهة من الزمن . وعلم منها أنها تسكن الشقة رقم ٢٠ فى الصف الثانى مع زوجها وخادمتها . وعلمت منه أنه يسكن فندق الكرنك فى الحجرة رقم (٥) . وكان أثناء الكلام يحدق طويلا فى عينيها الجميلتين وهى تبادله نظرات المرأة الناضجة ذات الخبرة الواسعة فى فنون الاغراء .

ولما قام الخواجة جبران مستأذنا قام معه عبد الرسول . وبينما كان الاثنان يسلمان على الجماعة سمعا مدام نعوم تقول لاحدى صويحباتها بصوت مرتفع :

— سوف نتقابل عصر اليوم عند اللسان ، أليس كذلك ياعزيزتى

وخرج عبد الرسول مع رفيقه . وما كادا يبتعدان قليلا عن القهوة حتى التفت عبد الرسول الى الخواجة جبران وسأله قائلا :

— مَن عائلة نعوم هذه ؟

فابتسم الخواجه جبران وقال :

— تحفة ياسيدى .. تحفة من التحف الطيبة .

— أهذا كل ماعندك بشأنها ؟

— وماذا تريد منى أن أقول ؟

— شيئا عنها

— انه يتلخص فى كلمتين

— ما هما

— لقد كان للرجل عدة فنادق وقهاوى فى « بر الشام » تركها له أبوه . كانت تدر عليه أرباحا طائلة ولأمر ما تدهورت أحواله فباع ممتلكاته جميعها وصفى أعماله ونزح الى مصر حيث اشترى بباقى ثروته مجموعة مختلفه من الاسهم . يعيش من ريعها عيشة متوسطة

— ومدام نعوم ؟

— تزوجها صغيرة فى سن الخامسة عشر قبل أن يفقد ثروته الطائلة بوقت قليل . وكانت من عائلة فقيرة بائسة . . أتريد أن تعرف أكثر من ذلك .

— كلا وأشكرك

ثم ابتسما وافترقا .

— ٣ —

بعد ما تناول عبد الرسول طعام الغداء خرج الى الشرفة ليستريح على مقعده القماش الطويل . ولما أتاه خليل السفرجى بالقهوة قال له على الفور :

— أريد أن أخرج فى نزهة خلوية على النيل بمفردى . فهل أستطيع أن أجد قاربا نظيفا .

— بكل سهولة ياسيدى فى أى ساعة تريده .

— فى الساعة الخامسة أمام الاوكاندة .

وأغمض عينيه وأراد النوم فلم يستطع . وشعر بتنبه شديد فى أعصابه . فتناول رزمة من الجرائد والمجلات أخذيتلهى بتصفحها . وبعد قليل رمى بالصحف جانبا وترك السرير وجعل سير فى الغرفة جيئة وذهابا . ثم وقف أمام النافذة وأخذ يراقب الطريق بأمواجه الرملية الحارة وعشبه الساكتة الوخمة . وأخيرا ترك النافذة وقصد حقيبته وأخرج منها ما انتوى ارتداءه من الملابس عصر هذا اليوم . وبدأ يلبس فى عجلة لامسوغ لها اذ كان باقيا على ميعاد خروجه أكثر من ساعتين وارتدى قميصا من الحرير الابيض بياقة صيفية مفتوحة يظهر خلفها مثلث صغير من أعلى الصدر . وبنطلونا من الفانلا يماثل لونه لون القميص . وحذاء من الكاوتش جديدا ناصع البياض . ولم ينس أن يسرح شعره بعناية ويضمخه بالعطر وأمسك بيده منشة من العاج .وخرج وقابل خليلا على باب الفندق وسأله عن القارب . فقال له خليل ان القارب سيكون معدا فى الساعة الخامسة بالضبط . وجعل يتمشى فى البهو الكبير قتلا للوقت ثم خرج يتنزه على شاطىء النيل أمام الفندق . ولكن لم يمض على خروجه بضع دقائق حتى رأى نفسه فى « اللسان » . وكان الهواء

عليلا يسكر النفوس فوقف على مقربة من الامواج منتشيا بلذة عميقة . ثم هرع فى خفة الاطفال الى ملعب الجباز الكائن فى تلك الناحية وتسلق العقلة وجعل يدور عليها بنشاط وابتهاج ، ورأس البر تدور كلها معه ببحرها ونيلها ورمالها وعشبها . وأخيرا طوح بنفسه قافزا من العقلة قفزة فنية الى الوراء شعر أثناءها كأنه يسبح ويغوص فى أمواج غاية فى اللطافة والنعومة . وهبط واقفا على الارض . وسُمعت جلبة عظيمة فيها هتاف وضحك وصراخ . فالتفت حوله فاذا به محاط باخوانه السوريين الجدد الذين تعرف بهم فى قهوة انستاسى ظهر اليوم ، يهنئونه ويهللون به . وتقدمت اليه مدام نعوم وهى تقول له فى عتاب ودلال

— كدت تسحقنى بجسمك الهائل . .

وتكلم الخواجة نعوم بصوته الاخنف المتناوم .

— لم نكن نعلم أنك رجل « سبور » ياحبيبى . . هيا وفرجنا على شقلبة أولاد المداراس

وكانت مدام نعوم مرتدية فستانا رفيعا شديد الالتصاق على جسدها . يظهر جسمها عضوا عضوا . قصيرا مرتفعا الى الركبة يترك بلا رحمة تحت الانظار سيقانها العارية التامة الزينة . وكان فستانها وشبشبها ومظلتها من لون واحد وزخرفة متماثلة : ورود

مختلفة الالوان متداخلة فى بعضها . وكانت تتلوى فى وقفتها كأن شيئاً يدغدغها ، ونسيم البحر الخبيث يلعب بفستانها القصير كأنه يقول لها بجرأة : لم تحتفظين بهذا الثوب المزيف وجسدك كله ظاهر ، نهب العيون .

وسلّم عبد الرسول على الجميع فى ضحك وابتهاج وسار واياهم يتجاذبون أطراف الحديث : نوادر وفكاهات مصحوبة بمداعبات من الرجال ودلال وسحر من النساء . وكانت مدام نعوم بجواره . ولاحظ أنها تتباطأ فى سيرها . وكثيرا ماوجد نفسه منعزلا معها عن الجماعة . وكان يشعر بجسدها يلامس جسده و بيدها تشد على يده فيرفع بصره اليها فيراها تبتسم له فى اغراء . فكان يجاريها فى عملها و يبادلها الابتسام والمداعبة . وجاء خليل يلهث من شدة التعب بعد ماأضناه البحث على عبد الرسول . وقال له عند مارآه :

— القارب جاهز يابيه وهو تحت طلبك .

فرمقه عبد الرسول بنظرة شزراء وأجابه على الفور :

— قارب فى عينك . هل هذا وقت فسحة فى قوارب .

— ٣ —

وعاد الى الفندق بعد ما قضى وقتا شهيا فى صحبة مدام نعوم

و رفاقها . و بعد الطعام اجتمع ببعض زملائه من سكان النزل ولعب معهم الطاولة . ثم استأذن مبكرا وقام الى النوم . وما كاد يدخل فراشه و يغمض عينيه حتى استغرق فى سبات عميق . و بعد وقت لم يعرف مداه استيقظ على حركة أمام حجرته . فرفع رأسه ليتبين ما الخبر . فاذا بشخص يحاول فتح الباب بمهارة وتستر كأنه لص متمرن . فقفز من سريره منزعجا . ولم يكد يخطو خطوتين الى الامام حتى انفتح الباب ودخل منه عجلا شبح لم يشك لحظة واحدة فى أنه شبح امرأة . واذا به وجها لوجه أمام مدام نعوم ! فبوغت منذهلا . وفتح فمه ليتكلم . ولكن مدام نعوم أقفلته بقبلة حارة عميقة . أصابه منها تخدر يشبه الاغماء . وجعلت تهمس فى أذنه بكلمات كلها حب واشتهاء . وكانت تلصق خدها بخده و جسمها بجسمه فيشعر بالحمى تتقد فى جوانحه . وسألها برفق عن زوجها فأجابته بصوت منخفض :

— انه يلعب الطاولة و يشرب الزبيب مع أصحابه . ولا يعود الى العشّة الا فى الصباح

وكان يسمع أثناء ذلك شخير جاره العجوز كانه ينبههما بوجوده . ولكنهما لم يأبها له وأمضيا ليلة غرام عنيفة لم يتذوق عبد الرسول فى حياته مثلها .

وفى اليوم التالى بينما كان يشرب الفازوزة الباردة فى شرفة الفندق البحرية قبيل الظهر جاءه « عبد العزيز » الجرسون بقهوة انستاسى وأخبره بأن الخواجة نعوم يريده فى مسألة هامة . فتحير فى أمره مضطربا . وتضاربت الآراء فى رأسه . وفيما كان على هذه الحال سمع عبد العزيز يقول له :

— الخواجة نعوم منتظر حضرتك الساعة فى القهوة عندنا .

فأجابه على الفور وبلا وعى :

— سأحضر . سأحضر

وسلم عبد العزيز وانصرف . ورأى عبد الرسول من اللائق وجوب مقابلته للخواجة نعوم وتفاهمه معه فى الحال .

ونهض قاصدا قهوة « انستاسى » فألفى الخواجة نعوم جالسا بمفرده يشرب الزبيب ويمز بالفاصوليا . وغير بعيد عنه الخواجة جبران وعياد أفندى ومدام نعوم ، ملتفين حول مائدة أخرى ، الاولان منهمكان فى لعب الطاولة والاخيرة تتفرج عليهما فاتجه عبد الرسول توا الى الخواجة نعوم وسأله فى عجلة قائلا :

— خير ياخواجة نعوم خير ما الخبر .

فقابله الرجل بترحاب كبير . وأجلسه بجواره ونادى على الخادم ليحضر له كأسا من كونياك كورفوازييه وجعل يلاطفه على كتفه وهو يقول :

— خير ياحبيبى خير . المسألة بسيطة جدا . انما يجب أولا أن تتناول مشروبك لتبل به حلقك فى هذا اليوم الملعون الشديد الحرارة

والتفت عبد الرسول الى جيرانه الثلاثة ـ الخواجة جبران وعياد أفندى ومدام نعوم فوجدهم منهمكين فى لعبهم . فمال عليه الخواجة نعوم وقال له :

— اتركهم ياسيدى « بلا خوتة دماغ » .

ولكن مدام نعوم اختلست النظر الى عبد الرسول و رمته بابتسامة عذبة .

وأخيرا بل وأخيرا جدا . أخرج الخواجة نعوم نظارته و ركزها على أنفه المكور المعقد . ثم تناول من جيبه ورقة طويلة نشرها أمامه على المائدة . وقال بعد أن سلّك حنجرته .

— الموضوع ياسيدى مالى محض، مشروع الجنيه فيه يكسّب مائة جنيه . مشروع مليح تمام اشتركوا فيه معى بشوات و بهوات وماليون من أكبر ماليى القطرين .. هاك القائمة وانظر فيها .

وناوله الورقة الطويلة . فأخذها منه عبد الرسول . وهو لايعرف أى مشروع هذا الذى يكلمه عنه الخواجه . وقرأ بضعة أسطر فوجد أرقاما بجوارها أسماء . فأعاد الورقة اليه وهو يردد قوله :

— صحيح مشروع طيب جداً ... ولكن ...

وأراد عبد الرسول أن يتكلم ليستوضح الخواجة نعوم عن المشروع . ولكن الخواجه نعوم لم يترك له الفرصة لذلك اذ اندفع كالسيل الجارف يحدثه عن النهضة الاقتصادية وحب المصريين لتعضيد المشروعات النافعة وأسماء العظماء الذين اشتركوا فى مشروعه وهلم جرا .. وكان يكرر مايقوله عشرات المرات

فتركه عبد الرسول على هواه يتكلم حتى تعب وسكت من تلقاء نفسه . فرأى الفرصة مناسبة لأن يسأله عن ماهية المشروع . وقال له :

— المشروع فى غاية الجودة ... ولكن .. ولكن ماهو ياخواجة نعوم .

فصرخ الخواجة نعوم فى جد واهتمام قائلا :

— مشروع بناء كازينو فى رأس البر ياحبيبى . أريد أن أبنى كازينو هائلا على آخر طرز أجلب فيه أجواق الغناء والرقص والتمثيل لأدخل السرور على أهل هذا المصيف الكريم .

فأمسك عبد الرسول بيده وهزها فى حماسة قائلا :

— برافو عليك ياخواجه نعوم . أنت صحيح رجل همة وعمل .

فأجابه الخواجة نعوم بصوت متواضع وهو يخفض رأسه ويبتسم :

— محسوبك اقتصادى قبل كل شىء .

ثم رفع رأسه وحملق فى عبد الرسول وقال بلهجة الكبرياء :

— لقد كنت أملك عشرة فنادق فى بر الشام وكنت أدير فوق ذلك قهاوى للغناء والرقص والتفريح . فاعتمد علىّ ولا تخش على نقودك . ستكون فى مكان أمين ومضمون . وما قولك فى ان السهم بجنيه واحد . شىء تافه لايذكر .

وحانت من عبد الرسول التفاتة الى مدام نعوم فوجدها تشير اليه فى الخفاء . ان سوّف ولا تقبل . فعجب لأمرها . وعمل بنصيحتها . وقال للخواجة نعوم :

— المشروع ناجح ناجح . هذا شىء مؤكد . انما . . انما يجب أن يفكر الانسان فى الامر

— طبعاً ياسيدى طبعاً . أنا لا أريد أن تشترك إلا بعد روية واقتناع . على حريتك ياحبيبى على حريتك

ورأى عبد الرسول مدام نعوم قد تركت صاحبيها وخرجت الى الشارع بعد أن أشارت له اشارة خاصة . وبعد قليل استأذن عبد الرسول من الخواجة نعوم فسلم عليه الاخير بحفاوة كبيرة . وقبل أن يخرج مر على صديقيه الخواجة جبران وعياد افندى . وحياهما ببعض كلمات الترحيب والمجاملة . ولما خرج وجد غير

بعيد عن الباب مدام نعوم تنتظره . وقالت له إذ رأته :

— لاتكن عبيطاً وتشترك فى مشروع الكازينو . . كله كلام فارغ . . منذ خمس عشرة سنة وزوجى يعيش فى مشاريع وهمية لايكسب من ورائها بارة واحدة . ان أولاد الحرام يضحكون على عقله وينهبونه

فأخذ يدها بين يديه ولاطفها شاكراً بدون أن يتكلم فابتسمت ومالت عليه وهمست فى أذنه قائلة :

— سوف تعلّق على نافذة حجرتك الليلة منديلا . فاهم منديلا

— ولماذا

فلم تجب على سؤاله وأتمت قولها :

— وحوالى منتصف الليل سوف تسمع شخصا يصفر لك تحت النافذة لحن « فلنسيا »

ثم شرعت تصفر « فلانسيا » بصوت منخفض مطرب . وكانت تدنى فمها من أذنه رويداً . فكان يشعر بأنفاسها تلامس وجهه حتى اذا ما انتهت من انشاد الاغنية طبعت على خده فى سرعة ورشاقة قبلة ساحرة . فالتفت حوله منزعجاً خشية أن يكون قد رآهما أحد . أما هى فضحكت فى خفوت وقالت له :

— لا تخف يا عبيط لا تخف . . لايوجد أحد غيرنا فى هذا المكان .

وسمعا فى تلك اللحظة صوت الخواجة نعوم ينادى زوجته قائلا :

— ناعسة . ياناعسه

وحدقت ناعسة فى عبد الرسول وقالت :

— لاتنس أن تعلق المنديل وتفتح الشباك . . سوف تسمع اللحن حوالى منتصف الليل .

ثم تركته مسرعة واختفت داخل القهوة . وسار عبد الرسول فى طريقه وهو متحير متعجب .

وبعد العشاء نادى على خليل واختلى به فى ركن منفرد من قاعة الطعام وقال له :

— أريد أن تحمل الى حجرتى زجاجتين من الشمبانيا الفاخرة ومجموعة متنوعة من أطيب الفاكهة . . . سأخرج للنزهة قليلا على شاطىء النيل وعند عودتى أريد أن يكون كل شىء جاهزاً . فاهم ؟

فابتسم خليل فى خبث وقال بمداعبة :

— البيه عنده معازيم الليلة .

- مش شغلك يابارد

ثم نفحه ببقشيش سخى أخذه خليل وهو يردد له آيات الحمد والشكر . وخرج عبد الرسول الى شاطىء النيل وتنزه قليلا . ثم عاد الى حجرته فوجد خليلا قد أعد مائدة فى وسط الحجرة عليها

الفاكهة الفاخرة والشمبانيا المثلجة فرقص قلبه سرورا . وقصد النافذة وفتحها وعلق خارجها منديلا كبيرا ثم جعل يقطع الوقت بلعب الكتشينة و بتصفح الجرائد أو بالتطلع من النافذة و بينما كان على هذا الحال سمع لحن فلانسيا فهرع الى النافذة ووجد ناعسة تتسلقها فى مهارة وخفة القطط . فجذبها فى رفق وشوق الى داخل الحجرة . ولما رأت الشمبانيا صفقت بيديها طربا وصرخت مهللة . فدنا عبد الرسول منها وهو يخفف حماستها قائلا :

— على مهلك . . على مهلك . لئلا يستيقظ جارنا العزيز .

ولكن جارهما العزيز كان يغط فى نومه و يسمعهما من حين لآخر شخيره العميق . وكانت ليلة هائلة كسابقتها .

— ٤ —

ومضت الايام وناعسة تزوره كل ليلة فى حجرته فيقضيان معا ساعات فتنة وهيام . وكان يقابلها فى « اللسان » أو فى قهوة انستاسى مع زوجها وأصدقائها فيقطع الوقت فى محادثات شهية أو لعب ظريف . وقد عزمه زوجها مرة على الغداء فحظى بأكلة فاخرة من الكبيبة والبابا غنّوج . ورأى من باب اللياقة أن يعزمها بدوره على أكلة من « الملوخية بالفراخ » . وكثيرا ما كان

الخواجة نعوم يفاتحه فى شأن المشروع فكان عبد الرسول يسوّف معه واعدا إياه خيرا

وذات مساء اختلت به ناعسة فى قهوة انستاسى وقالت له :

— ستحضر الليلة عندى فى المنزل . كل شىء سيكون معدا لنا . ستدخل من النافذة المفتوحة المعلق عليها منديل . إياك أن تتأخر عن الحادية عشرة .

ثم تركته وانصرفت الى « الجماعة » تحادثهم وتتفرج على لعبهم . وقد أراد عبد الرسول أن يظفر بحديث آخر عن دعوتها له فلم يستطع إذ كانت تتجنب أي خلوة معه بعد ذلك .

ولم يكن قد سبق لعبد الرسول أن زار زوجة زيارة غرام فى منزل زوجها . فتردد طويلا فى بادئ الامر ولكنه خضع أخيراً لحكم هذه المرأة الجهنمية . وقصد عشتها فى الساعة الحادية عشرة . وكان الشارع الذى خلف العشة مهجوراً مظلماً فاطمأن قلبه وتقدم بقدم ثابتة نحو النافذة المعلق عليها المنديل . فوجدها تنتظره هناك . فصعد اليها فى حذر وبادرها بقوله :

— الخواجة لم يعد بعد أليس كذلك ؟

فأجابته مبتسمة وهي تشد شعر رأسه فى دعابة .

— اجلس أولا واسترح . هدىء روعك فكل شىء على ما يرام .

فتنفس عبد الرسول الصعداء ولكنه لم يكد يجلس على الكرسى حتى صدمت أذنه كحة الخواجة نعوم فتأكد على الفور من وجوده فى العشة . ووقف غضباً مرتاعاً وقد تأكد أن هناك دسيسة دبرت له . وقال لها :

— ما معنى هذا . ان زوجك هنا

فأجابته بابتسامة لطيفة وقد وضعت أصبعها على فمه . وقالت بصوت منخفض :

— هس . انه فى الحجرة المجاورة .

ثم أجلسته بالرغم منه على مقعده وهمست فى أذنه قائلة :

—وهل كنت تظن أننى أدعوك الى ليلة غرام فى منزلى إلا اذا كان زوجى هنا . ما الفائدة اذا كان كل شىء حولنا يدعو الى الطمأنينة

فقاطعها منفعلا وقال لها :

— انت مجنونة . . أنت مجنونة .

ورفعت ناعسة صوتها تكلم زوجها قائلة :

— ألم تنم بعد يا « بابا »

فأجابها الخواجة نعوم بصوت كله حشرجة ووخم :

— على وشك النوم ياعزيزتى . وأنت ماذا تفعلين ؟

— ألعب الكتشينه

— عظيم عظيم

— ولكن ألا تأتى لتقبلنى قبل أن تنام ؟

فنظر اليها عبد الرسول منزعجاً ومتعجباً ، وسمع الخواجة نعوم يجيبها بقوله :

— حقاً لقد نسيت . . ما أغبانى

وسمع حركة نهوضه من فراشه . فقفز طالباً النجاة من النافذة . ولكن ناعسة جذبته جذبة قوية . وقالت له فى عجلة وهى تكتم ضحكها :

— أسرع تحت السرير . . تحت السرير

ولم يجد عبد الرسول بداً من اطاعتها على الرغم منه إذا كانت خطوات الخواجة نعوم تقترب منهما . فهرع تحت السرير زاحفاً واختبأ فى أقصى موضع منه وقلبه يدق . وبعد قليل دخل الخواجة نعوم الحجرة وجلس على السرير برهة يداعب زوجته ويقبلها . وكان عبد الرسول يرى من مخبئه ساقى صديقه الاشعرين بجلدهما المجعد وقدميه الحافيتين داخل شبشبه البالى . وأخيرا قام فسمعه عبد الرسول يخرج ويبتعد . ثم يدخل حجرته . وذهبت ناعسة وأقفلت باب حجرتها . ثم اقتربت من مخبئه ونظرت اليه فى عطف مصطنع وقالت له وهى تكاد تنفجر ضحكا :

— يا حرام أنت هنا ! أعطنى يدك لاساعدك على الخروج .

فأعطاها يده . وسحبته بلطف . ولما خرج قال لها وهو يجفف عرقه :

— هذا كثير يا ناعسة . . هذا كثير . . . اسمحى لى أن أنصرف

فقالت له غاضبة بلهجة الآمر :

— بل سوف تمضى الليلة كلها معى

— أنت فظيعة . فظيعة جداً

وسلم أمره اليها والى الشيطان . . !

— ٥ —

وسارت الامور على هذا المنوال عشرين يوما كاملا . وهذه المرأة الجهنمية تلاحقه كل ليلة فى حجرته أو تضطره لملاحقتها فى عشتها . وكان شعوره بالتقزز من أعماله يزداد على توالى الايام . وكان يرى سفالته متجسمة أمام عينه عندما كان يمد يده للسلام على الخواجة نعوم فبدأ يتهرب منه وقطع زيارته عن قهوة « أنستاسى » وحرّم على نفسه نزهة « اللسان » . وكان يشعر بالسخط على ناعسة والتأفف منها . ولكنه لا يكاد يراها من بعيد تتطلع اليه بابتسامتها الساحرة وعينيها الفاتنتين حتى يتلاشى هذا السخط ويحل محله فى قلبه العفو والرضا . ومن غريب أمر هذه المرأة معه أنها لم تكن تقبل

ه إلا الهدايا الصغيرة أمثال علب الشكولاته والبونبون . وكانت
ول له دائماً :

— لا أريد أن تكلف نفسك شيئاً من أجلى . أنت
كل هديتى

وفى اليوم الحادى والعشرين قام عبد الرسول من النوم
يق الصدر . وهو يفكر فى أن أمامه شهراً وعشرة أيام من اجازته
يقضيها هكذا فى جحيم هذه المرأة

وشعر فى هذا الوقت بعطف كبير على الخواجة نعوم . إذ تمثله
امه مستضعفاً مسكينا يقبل المهانة التى كان يكيلها له ، صاغراً ذليلا.

وأمضى الوقت كله قبل الظهر والهم يتكاثر ويزدحم فى
لبه . وتناول طعامه عابساً . وبعد انتهاء الطعام قصد مدخل الفندق
كالمعتاد وتمدد على مقعده القماش وشرب القهوة التى جاءه بها الخادم
ولكن لم يستقر به المقام طويلا حتى قفز من مكانه وقد اعتزم على
أمر واستدعى خليلا فى الحال وسأله :

— متى تقوم الباخرة الى دمياط ؟

— فى الساعة الخامسة ياسيدى

— إذاً أحضر فاتورة حسابى لأنى عزمت اليوم على السفر .

وأسرع الى حجرته وأخذ يرتب حاجياته فى حقائبه

وفى الساعة الرابعة ونصف دفع حسابه وأوصى خليلا ليحمل

عفشه الى الباخرة ، وكانت راسية بالقرب من الفندق . وقصد على الاثر قهوة انستاسى حيث يجتمع الخواجة نعوم عصر كل يوم باخوانه . فرآه فى رهط من الاصدقاء منهمكا فى لعب الطاولة وشرب الزبيب كالمعتاد . فدنا منه عجلا وسلم عليه باحترام كبير . وأخرج من محفظته على الفور ثلاثين جنيها كل ما يملكه من الاوراق المالية ووضعها أمامه على المائدة وهو يقول :

— أريد أن أشترك ياصديقى فى ثلاثين سهما من أسهم مشروع الكازينو . هاك النقود .

ثم خرج على الاثر مهرولا صوب الباخرة . وشكر الخواجة نعوم يرن فى أذنه .

وأقلعت بعبد الرسول الباخرة ووجهتها دمياط . وأخذت العشش تمر أمامه سراعا كلما أمعنت الباخرة فى السير . ورأى عبد الرسول قهوة انستاسى تمر أمامه بدورها وشاهد فيها رهط الاصدقاء وبينهم الخواجة نعوم بظهره المحدودب ورأسه الاصلع المنحنى يتحدث مع الجمع فى اهتمام

وشعر عبد الرسول كأن حملا ثقيلا قد أزيح من على عاتقه . فابتسم ابتسامة كبيرة واستقبل نسيم الماء بصدر رحب .

وبدأت رأس البر تغيب عن عينيه رويدا رويدا . . .

الشيطان

الشيطان

حدثنى صديق قائلا :

كنت أسكن ضاحية المطرية منذ خمسة عشر عاما وكنت مستأجراً منزلا صغيراً متواضعا فى شارع « المسلة » أعيش فيه مع والدتى وخادمتنا العجوز . وأشتغل مدرساً باحدى المدارس الابتدائية فى العاصمة . ولم تكن حياتى تخلو من ملل وتعب إذا كان عملى المدرسى المرهق يشغل كل نهارى فأعود الى المطرية بقطار المساء وأنا مهموم ضيق الخلق . فأتسلى بالتنزه فى الغيطان قبل العشاء وبعده . ولم أكن أعرف من سكان الجهة إلا بعض الجيران والمعارف العاديين الذين يضطر الانسان الى التعرف اليهم بحكم الظروف والذين لاترتبطنى بهم غير رابطة السلام والاحاديث القصيرة الرسمية . ولكن لم يمض على وجودى فى هذه البلدة الصغيرة بضعة أشهر حتى تعرفت بشيخ جليل يدعى الشيخ مُوافى . كان أستاذاً للغة العربية فى المدارس الابتدائية وأحيل على المعاش . رجل بقامة طويلة ولحية مهيبة ومشية رزينة تشبه مشية السلاطين . يتكلم بلهجة متزنة هادئة كأنه إمام يعظ الناس من فوق منبر الجامع . وتبدو على وجهه دائما أمارات الطيبة

الصلاح . و بالاختصار كان كل مافيه يثير اعجابى و احترامى .
توثقت بيننا الصداقة فى فترة قصيرة من الزمن إذ وجد كل منا فى صاحبه الصديق الذى يتفق و إياه عقلا و مشربا . وكان يسكن منزلا ريفياً قديماً وسط الغيطان و بعيداً عن العمران كنت أقطع اليه المسافة من منزلى فى نصف ساعة تقريباً . يحيط بهذا المنزل شبه حديقة استأجرها صديقى من صاحب الغيط المجاور ليزرع فيها بعض الخضروات . وكان يعجبنى من هذه الحديقة المتواضعة مظهرها الريفى الخالى من كل تنميق أو صنعة . وكانت جلستنا دائما بجوار القناة الرئيسية فى موضع — تظلله شجرة هرمة — اختاره الشيخ موافى للصلاة فأحاطه بسور قصير من الطين و فرشه بالقش و السمار . هناك كنا نتبادل أحاديثنا الهادئة عن الدين و اللغة و الأدب و التاريخ . أو نقرأ فى بعض الكتب المشهورة مثل الاغانى وابن الاثير والكامل . وكنت أحب هذه الجلسات وأنتظر بفارغ الصبر خلوى من العمل لأستمتع بها من جديد . وكان الشيخ متفقها فى اللغة والادب على وجه خاص ولكنه كثير الخرافات فى معتقداته الدينية

ولصديقى ابنة فى الثانية أو الثالثة عشرة من عمرها — هى كل عائلته — تقاسمه الحياة وتقوم له بكافة أعماله المنزلية . شاهدتها

مرات قليلة وأنا أتناول الطعام على مائدته اذ كانت تقوم على خدمتنا أثناء الاكل . فتاة متوسطة القامة عادية الملامح واللون خالية من كل رشاقة وزينة لايميزها الا شيئان يشاهدان دائما عند كل فتاة فى سنها : دنوها من النضوج الجثمانى والتفتح الجنسى تدل حركاتها الساذجة وما ينبعث من هيئتها من مظاهر الجبن والاضطراب على ماتعانيه من حياة كلها قسوة واستعباد . يعاملها أبوها معاملة شاذة لاتتفق وطيبة قلبه . فلا يرحمها بنظراته النارية ولا يكلمها الا بألفاظ خشنة مقرونة دائماً بالشتائم . واذا أتت بهفوة حاسبها عليها حسابا كبيرا . وكان يفسر لى سبب تلك المعاملة الغريبة بقوله : « ان الفتاة فى هذه السن تجتاز دوراً خطراً من أدوار حياتها فاذا عاملناها بالحسنى وأطلقنا لها حريتها ظنت ذلك ضعفا وتهاونا منا فاندفعت بلا حساب فى طريق الغواية . أما اذا كبحناها وفرضنا عليها كامل سيطرتنا شبت خاضعة لقوانين الشرف والعفاف »

وكان يساعد الشيخ فى زراعة حديقته فتى فلاح يسمى عزازى له سمرة الاسوانيين . لايستر جسمه الصلب المديد غير جلباب قصير يظهر منه صدره الأفحم العريض ورجلاه الموحلتان

وسارت الحياة على هذا المنوال فترة من الزمن نستمرئ أنا

وصديق ساعات مسامراتنا الحلوة على أحب وأشهى ما نريد

— ٢ —

ولكن لعظم دهشتي لاحظ   أ على حالة صديقي بدأ طفيفا ثم أخذ يتزايد ويتفاقم   إلى الايام . فكانت صدمة لى نغّصت عليّ أشهى ساعات حياتى . فكم من مرة رأيته يصمت واجما ثم ينتبه منزعجاً على أثر رَجفة عنيفة فجائية . واكتسى وجهه بطبقة صفراء داكنة تحمل عبوسة اليأس وعذاب النفس فى كل ناحية من نواحيها . واختفت لمعة النشاط والحياة من عينيه وحل محلها كمد الموت فى أقسى مظاهره . فكنتُ أشاهده على هذا الحال وأنا متحسر مندهش وأناجى نفسى بقولى : «ما خطب الرجل ياترى . هل حلت به رزيئة فى ماله أو فى عائلته أم نُكب فى صحته .... »

ومن الغريب انه كان يحاول دائما ـ على غير جدوى منه ـ اخفاء حالته عنى . فكان يثير كامن شفقتى بهذه المحاولات السخيفة المفتعلة . ومع ما كنت أشعر به من لهفة شديدة لمعرفة سره كتمت فضولى عنه محترما ارادته الخفية

واتفق أن احتد معى مرة فى مناقشة بسيطة احتدادا شديدا

فرأيته قد تنمر على خلاف عادته وهب واقفا بر تجف وعيناه ترجمانى بجذواتهما المستعرة وأخذ يسبنى بلا حساب ثم تناول هراوة ضخمة وقذف بها على فلم تصبنى... وكانت مباغتة ألجمتنى وصعقتنى. ماهذا الانقلاب المدهش. هل هذا هو الشيخ موافى صديقي الحميم مثال الطيبة والوداعة.

ولما أفقت من دهشتى وجدت الشيخ يرغى ويزبد ويلوح بيديه مهدداً وهو يدور حول المصلى كالثور الهائج. فقفزت من مجلسى هارباً وخرجت أعدو فى الطريق العام وأنا ألتفت خلفى بين فترة وأخرى خشية أن يكون الشيخ متعقباً أثرى. وما شككت لحظة فى أن الرجل أصيب بنوبة جنونية على حين بغتة ربما أوصلته الى المارستان عن قريب. وفكرت فى أن أخطر رجال الامن عن حالته

وفى أصيل اليوم التالى عند ما كنت عائداً من المحطة وميما صوب منزلى بعد انتهاء عملى المدرسى فى العاصمة وجدت الشيخ موافى فى الطريق منتظراً قدومى، فانزعجت وحاولت الهروب منه. ولكنه لحق بى وأمسك يدى وضغطها بمودة واستغفار والدمع يترقرق فى عينيه وقال متلعثما بانفعال:

— لقد قضيت اليوم كله وأنا مترقب عودتك. ياصديقى..

ماذا أقول لك . . هل يمكنى أن أطمع فى عفوك بعد الذى صدر منى فى حقك أمس . . ان شئت فاضربنى . . اصفعنى على وجهى افعل ما تشاء ولكن لا تكن حاقدا على

وجعل يضغط على يدى باخلاص ومودة فملكنى التأثر ولاطفته وأنا مغمور بدهشة عظيمة وقلت له :

— ما هذا الكلام ياصديقى . هل يخطر فى فكرك أننى أحقد عليك من أجل مسألة تافهة كالتى وقعت بيننا أمس

وكان الرجل يرتجف ويتصبب عرقا ، يلتفت منزعجاً حوله وصدره يعلو ويهبط فى حركة شاذة فما شككت ساعة فى أنه مريض وأخذت أطيب خاطره بكل جهدى . وقدته الى منزلى فلما اقتربنا منه قلت له :

— هل لك فى فنجان من القهوة يا صديقى ؟

فاجابنى بصوت ضعيف وقد بدت تظهر على محياه أمارات الهدوء والاطمئنان

— بكل سرور . . . أتصدق أننى لم أذق طعاماً منذ ليلة أمس ؟ !

— إذاً أقدم لك شيئاً

فأتى باشارة امتناع ضعيفة . وأخرج من عبه منديله وأخذ

يمسح به رأسه ويروّح به على وجهه وكنا قد دخلنا المنزل فأوصلته الى منظرة الضيوف . وأسرعت الى والدتى لأخبرها بتجهيز القهوة والطعام له . وبعد قليل جاءت خادمتى العجوز تحمل الصينية ووضعتها أمام صديقى . وما كادت تفعل حتى انهال الرجل على الأكل يلتهمه بشره عجيب . كأنه لم يتذوق طعاماً منذ أسبوع . ثم تناول القهوة فكرعها كما يكرع السكير الخمر . وبعد ذلك مسح فمه وأتى بحركة تدل على الرضى . وحمد الله طويلا . ثم أخذ يحدثنى فى هدوء حديثه القديم الذى عودنى إياه . وأمضينا سهرة حلوة لاتختلف عن سهراتنا السالفة . ولما انتهت الزيارة خرجت معه الى الشارع فأمسك بيدى وهزها طويلا . ثم رأيت شفتيه تتحركان حركات غامضة تريدان الافضاء الىّ بسرهام . ولكنه ماعتم أن رمها بشدة ليمنعهما عن الكلام . وأسرع الخطا هاربا ..

وفى مساء اليوم التالى رأيت من واجبى أن أذهب اليه لأؤكد له صفاء قلبى من ناحيته فقابلنى بترحاب كبير وجلسنا جلستنا المعهودة فى المصلى وسمير نا كتاب الاغانى . وكان صديقى يقرأ لى على ضوء مصباح ضعيف قراءة دلتنى على شرود فكره . وبغتة أطبق الكتاب وحملق فى وجهى قائلا :

— ما رأيك فى الجن يامجدى افندى ؟

فنظرت اليه مدهوشاً إذ كان موضوعنا الذى كنا نقرأه فى

كتاب الاغانى لا يمت بأى صلة للجن . ولما طال سكوتى أعاد سؤاله على صورة أخرى قائلا :

— ألا تعتقد فى وجود الجن ؟

فأجبته على الاثر :

— الجن ! بلا كلام فارغ ياشيخ

— ولكن الله ذكرهم فى القرآن

— هذا صحيح . ولكنه قال — على حسب ما أذكر — انهم يعيشون بعيدين عنا لا نراهم

فرأيت وجهه قد احتقن وأجابنى محتداً :

— هذا غير صحيح . . غير صحيح . . . عندى برهان قاطع يثبت أنهم يعيشون بيننا . . وأنهم .

ولكنه ملك زمام عواطفه الجامحة ولم يتم قوله بل اقتصر على التمتمة ببعض كلمات مبهمة . ورأيته يضع الكتاب جانبا ويمسد جبهته بيده وقد اكفهر وجهه . فقلت له فى رفق :

— يظهر أنك تعب هذه الليلة ياصديقى . ألا تسمح لى بالذهاب . يجب أن تنام مبكرا

فأجابنى وهو ينظر الى الافق نظرة تائهة :

— انى مريض . . أشعر بدوار خفيف

فقمت مسلماً وخرجت من فوري وأنا مشفق على حاله . وبعد أن قطعت مسافة غير قصيرة من الطريق تنبهت الى أن عصاى ليست معي وانى قد نسيتها فى المصلى . فاحترت فى أمرى هل أعود لآخذها أم أتركها للغد . ولكنى فضلت العودة فى الحال اذ لم أكن متعودا السير ليلا فى هذا الطريق المقفر بدون عصا . وعدت أدراجى الى المصلى وأخذت العصا وخرجت . ولكنى ما كدت اسير بضع خطوات فى الطريق حتى طرق سمعى أنين ضعيف تبعه صوت أجش خافت فى لهجته شىء من التهديد فتوقفت عن المسير وأنصت باهتمام لا يخلو من خوف . فتكرر الأنين والتهديد فى خفوت يكاد يكون غير مسموع هذه المرة والتفت حولى وأنا مرهف الاذنين لاتبين مصدر الصوت ونوعه . أهو صادر من المنزل أم من الغيطان . أهو صوت آدمى أم صوت حيوان . أم هو حفيف الاشجار وصفير الرياح ... وخطر فى بالى فى هذه اللحظة خاطر غريب أوقع الرعب فى قلبي . فناجيت نفسى قائلا : « أم هو صوت الشياطين السائبة فى الليل » . وكان غير بعيد عنى ساقية مهجورة طالما روى لى عنها الفتى الفلاح عزازى ـ بستانى صديق الشيخ موافى ـ حكايات مخيفة كنت أقابلها دائما بالسخرية . ولكننى فى هذه اللحظة لم أجرؤ على

الهزء بها . وقد أخذت حوادثها تمر بالرغم منى على صحيفة خيالى متمردة مخيفة . والتفت بحركة ميكانيكية لم يكن فى استطاعتى منعها — ناحية الساقية فرأيت جذع الشجرة المقطوع قد استطال وتفرع وتبينت فيه شبحا غامضا يومىء إلىّ ويضحك . فحولت نظرى عنه بسرعة وقفزت أعدو فى الطريق كالطريدة المذعورة . وضحكات الشيطان تتبعنى . وظللت على هذا الحال أجرى غير ملتفت يمنة ولا يسرة حتى وصلت دارى . فدخلها وأنا ألهث من شدة التعب وارتميت من فورى على أول مقعد صادفنى

—٣—

وقطعت زياراتى عن صديقى الشيخ بضعة أيام . فجاء يسأل عن سبب غيبتى . فاعتذرت له بالمرض وأمضينا معا السهرة فى منظرتى . وبينما كنا نتسامر مسامراتنا الأدبية نظرت الى الشيخ وقلت له فى شىء من المداعبة المتكلفة :

— يظهر أن نظريتك الخاصة بالجن صحيحة

فاهتز على مقعده مرتجفا . ورأيت أعصاب وجهه تلعب وعينيه ترمشان بسرعة وقال لى منفعلا :

— أحقا ماتقول

فتضاحكت متظاهرا بعدم الاهتمام . وقلت :

— حادثة تافهة وقعت لى منذ أيام ..

فدنا منى وضغط على يدى بشدة وطلب منى فى لهفة والحاح أن أروى له حادثتى . فاضطررت أن أرويها له فى شىء من التحوير بعد أن غيرت زمانها ومكانها . وما كدت أتمها حتى قفز من مكانه وأمسك كتفىّ بكلتا يديه وجعل يهزها قائلا بصوت عال مفزع :

— اقسم بالله أنك رأيت الشيطان

فارتجفت رعبا . وبعد أن أجلسته بجانبى سألته بصوت خافت قائلا :

— وأنت .. هل رأيته ؟

فصمت برهة وعيناه القلقتان تشعان نوراً غريبا . وأخيرا أجابنى قائلا :

— لم أره حتى الآن ... ولكننى سأراه عن قريب

ثم تحرك باضطراب على مقعده وأتم قوله :

— أشعر بوجوده .. وقد سمعت صوته مرارا ... ثق بأننى سوف أراه عن قريب عندما ينطلق أمامى خارجا من سجنه

فسألته مندهشا :

— وهل هو مسجون

— طبعا مسجون و ...

ونهض واقفا بحركة عصبية قبل أن يتم جملته . ثم مد الى يده وقال فى عجلة واضطراب :

— يجب أن أتركك . ان موعد نومى قد حل

فلم أشأ أن أثقل عليه بأسئلتى . وخرجت معه حتى باب الدار .

وتكررت زيارة الشيخ لى كل ليلة تقريبا . فكنا نمضى السهرة فى منظرتى بين حديث عن الادب أو مطالعة في كتبه . وقد تحاشينا فى كلامنا ذكر الشيطان . ولكننا لم نكن كسالف عهدنا فى بهجة واطمئنان وان كنا نتظاهر فى كآبة ممقوتة بمظاهر كاذبة لا تتفق وذلك القلق المستحوذ على نفوسنا . كان ينقصنا نوع من الاخلاص نتبادله . وأضحت جلساتنا مملة فكثر فيها التثاؤب والوجوم وصرنا نحارب الخمول المستولى علينا بشرب القهوة بلا حساب

ومرة بينما كنت أوصل الشيخ موافى لباب الدار بعد انتهاء سهرته عندى رأيته قد توقف عن المسير والتفت إلى وقد امتقع لونه وارتعشت عضلات وجهه . وقال :

— اسمع يامجدى أفندى . . . عندى سر أريد أن أخبرك

به : سر كبير يعذبني عذاباً أليما

ولم يكد يتم جملته حتى خنقته العبرات . وارتمى على صدرى ينشج كالاطفال . فشعرت كأن قلبي يتمزق . ولاطفت الرجل قائلا:

— فلنعد الى المنظرة يا صديقي لتستريح قليلا ولتشرب كوباً من الماء

فرفع رأسه من فوق صدرى وجفف دموعه وهو يقول :

كلا . كلا . لا أستطيع . تعال زرنى غداً فأفضي اليك بسر آلامى

ثم سلم علىّ بعجلة وخرج مهرولا

وفى مساء اليوم التالى ذهبت اليه فما كاد يرانى حتى قام إلى مسلماً ومرحباً وأدخلنى الدار معه وجلسنا فى منظرة الضيوف التى نقضى فيها عادة سهرات الشتاء . وأحضر صديقى كتابه وأخذ يقرأ لى والعجب آخذ منى كل مأخذ . وظل على حاله هذا وقتاً طويلا وأنا لا أستطيع أن أفسر سر هذه اللعبة الجديدة التى يريد أن يلعبها الشيخ معى . أجئت هذه الليلة لاستمع لحديث كتابه أم لحديث قلبه . وأخيراً أظهرت له شيئاً من الضجر وقلت له مقاطعاً :

— ألا خبرنى عن صحتك . . . أأنت أحسن حالا اليوم

فأجابنى والكتاب على وجهه :

— على أحسن مايرام

وتابع مطالعته كأن لم يحدث شيء . ونظرت اليه غاضباً وناجيت نفسي :

آه لو استطعت أن أقذف بكتابه هذا بعيداً وأن أضطره ليكشف لي عن سره

ولكن صديقي كان متابعاً قراءته غير مهتم لشيء . ولما انتهت الزيارة وسلمت عليه مستأذناً ابتسمت في وجهه ابتسامة متكلفة وقلت له متشجعا :

— ولكنك لم تخبرني عن سرك ياصديقي .. ألم تطلب مني ليلة أمس أن أحضر اليك لتفشي الىّ سر آلامك

فهز يدي مسلماً وأخذ يدفعني نحو الباب وهو يقول :

— اخرج يامجدي افندي اخرج .... ومع السلامةياصديقي .

فخرجت غاضباً وأقفلت الباب خلفي بشدة . وتصادف أثناء خروجي أن رأيت شخصاً يسير في الطريق في عكس الجهة التي أقصدها . وكان عزّازي بستاني الشيخ موافي . فوقفت فلما لمحني أقبل علىّ مسلما وهو يقول :

— أهلا مجدي افندي . كيف حالك . لم أرك منذ مدة طويلة .

— ولا أنا أيضاً ياعزازي . أين أنت . ألم تزل في خدمة الشيخ موافي

— لقد تركت خدمته منذ شهر . ان أخلاقه أصبحت لا تطاق.

— كيف ذلك ، وأنا لا أعرف من هذا الامر شيئا مع أنى أقابل الشيخ كل يوم تقريبا

— المقصود . رزقنا على الله ياسيدى .

— ولكن ماسبب خروجك من عند الشيخ؟

— لاشىء وحياة رأسك . لاشىء مطلقا . كان يشتمنى بلا سبب . ويلعن جدودى وجدود جدودى . وأنا صامت أتحمل شراسته من أجل أكل العيش . ولكن أخيراً لم أطق صبراً لقد صفعنى على وجهى . وضربنى ضربا شديدا .. المقصود فضنا. حضرتك راجع الى البيت ؟

— طبعاً ياعزازى

— ألا تريد أن أوصلك .. ان الطريق مقطوع . من يدرى يمكن يطلع لك « بسم الله الرحمن الرحيم » . انظر الى هذه الساقية . انه يسكنها منذ سنين

— وهل لاتخشاه أنت ؟

— كلا . لأنى أخذت عهداً على الشيخ الرفاعى حليف ملك الجن

— أسمح لك أن ترافقنى حتى نهاية المزارع أى الى أن ندخل « العمار »

— على عينى ورأسى . هيا

وسرنا جنبا الى جنب وعزازى يسامرنى بحديثه اللطيف . ولكننا لم نكد نبتعد عن المنزل قليلا حتى طرق سمعى أصوات الأنين والتهديد التى سمعتها قبلا فى المكان ذاته وفى الوقت عينه . فتوقفت عن السير وهمست فى اذن صديقى الفلاح قائلا :

— ألم تسمع ؟

— ماذا ؟

— هذه الاصوات الغريبة

— هذا شىء أسمعه كثيرا انهم يقتتلون هناك فى الساقية .

وكنت متشجعا بوجود عزازى . وسمعت فى هذه اللحظة الأصوات أوضح من الاول . فأمسكت بيد الشاب وقلت له بالحاح:

— هناك استغاثة ... انها أصوات آدمية .. يوجد أشخاص يتعذبون ... يجب أن نبادر الى نجدتهم . يجب أن نعلم أين هم .

وشددت عزازى معى وقد خطر لى أن أرتاد منطقة الساقية والمنزل وما يجاورها من الغيطان لعلى أكتشف مصدر هذه الاصوات . ولكن عزازى جرنى من يدى وهو يقول ضاحكا :

— لاتتعب نفسك ياسيدى افندى . كن رجلا رزينا . مالك ومال الجن . اتركهم في حالهم يتركونا فى حالنا . تعال ياشيخ وفضها

وعدنا الى السير فى طريقنا . وأخذ عزازى يسامرنى من جديد بحديثه اللطيف

— ٤ —

وفى مساء اليوم التالى بعد تناول طعام العشاء فى منزلى خرجت الى قهوة صغيرة بالقرب من المحطة لأدخن الشيشة وأفرّج عن نفسى بعض الضيق المستولى عليها . فرأيت هناك عامل البريد . فما كاد يرانى حتى هرع الىّ مسلماً . وبدأ حديثه معى على الفور قائلا :

— ألم تر صديقك الشيخ موافى ؟

— كنت معه مساء أمس

— واليوم ؟

— لم أره . ولكن لم هذا السؤال ؟

— لأنى مررت على منزله اليوم دفعتين لأسلمه خطابا مسجلا . فلم يشأ أن يقابلنى . وقد أخبرتنى أم حسن اللبانة أنها ذهبت اليه عدة دفعات لتسلمه اللبن والعيش . فلم يشأ أن يفتح لها . بل كان يصرخ فيها من خلف الباب آمراً اياها أن لاتعود

فعجبت لرواية عامل البريد . وناجيت نفسى بصوت مسموع قائلا :

— ان أموراً رهيبة تجرى فى ذلك المنزل ولا ريب

— وما رأيك

— أن نذهب لمناك فى الحال .. ان قلبى يحدثنى بوقوع مكروه ... ألا توجد ركائب يمكننا استئجارها . ان المسافة بعيدة.

— يوجد عند صاحب القهوة

وذهبنا من فورنا الى صاحب القهوة واستأجرنا منه حمارين. صحبنا معنا فتى فلاحاً صلب العود متسلحا بهراوة ضخمة . وقطعنا نصف الطريق فى خمس دقائق اذ كان الحماران يعدوان بنا بأقصى سرعتهما .. وما كدنا نصل البيت ونترجل أمامه حتى اخترق سمعنا صوت رهيب صادر من المنزل يصرخ قائلا :

— أخرج . أخرج من محبسك أيها الشيطان

فوقفنا جامدين لانتحرك ونحن ننظر الى بعضنا فى دهشة ورعب . وأخيراً ملكت روعى وتكلمت قائلا :

— أقسم بالله أن هذا هو صوت الشيخ موافى .

وهرولنا نحو باب الدار وأخذنا نقرعه بشدة . ولكن الشيخ لم يأبه بقرعنا اذ كان منصرفا الى مناجاة شيطانه يصرخ عليه بالخروج من محبسه . فلم نجد بداً من تحطيم الباب بفأس كانت ملقاة فى الحديقة . ودخلنا فوجدنا الظلام الحالك يغمر المنزل بأجمعه فسرنا

نتخبط على غير هدى ودليلنا صوت الشيخ . وبعد ان اجتزنا دهليزا ضيقاً طويلا وجدنا أنفسنا أمام حجرة أرضية رطبة . وفى لحظة كسرنا الباب ودخلنا فاذا بنا أمام مشهد رهيب : حجرة ضيقة فاسدة الهواء خالية من النوافذ تنيرها شمعة . أشبه بسجون العصور القديمة . وفى ركن من أركانها رأينا الشيخ موافى جالسا القرفصاء وأمامه هيكل عظمى ممدد على الارض يكسوه شىء من اللحم والخرق البالية . وبجوار هذا الهيكل كوز قديم من الصفيح به قليل من الماء . ولم يكن فى الغرفة شىء خلاف ذلك . فهرعنا نحو الهيكل نفحصه فوجدناه جثة لاحراك فيها بينما كان الشيخ يصرخ فينا بصوت أبح مخيف قائلا :

لا تقربوها . لاتقربوها انها رجس من عمل الشيطان .

وقلبت رأس الهيكل بين يدى لأتعرف من هو . ثم صرخت فى وجه الشيخ قائلا :

— ابنتك . ابنتك . ماذا فعلت بها

فأجابنى وقد بدأ يستولى عليه ذهول عجيب :

— لاشىء . قد أخرجت الشيطان من جسمها

وهبط مترنحاً على أرض الغرفة وأخذ يتكلم بصوت ضعيف :

لقد فاجأتها عدة مرات وهى تنظر الى عزازى نظر

كلها فجور واشتهاء . فعلمت أن الشيطان قد حل فى جسمها ولن يخرج الا بعذاب ألم . فحبستها وقلت لها الطعام و بدأت تعذيبى لها . وما كنت فى عملى هذا الا محاربا للشيطان . ولكنه كان قويا يكتفى بالزاد القليل و يحتمل التعذيب بصبر غريب . فلم أجد بداً من منع الطعام عنه بتاتاً وقصره على شرب الماء . وضاعفت عليه العذاب .. وأخيراً نجحت فى مسعاى ... لقد رأيته الليلة بعينى رأسى يخرج من فمها على شكل دخان متلاشيا فى سقف الغرفة ...

فتمتمت قائلا و رأس الفتاة بين يدى :

— كان فى استطاعتى انقاذها ليلة أمس قبل أن يقضى عليها هذا المجنون ... ولكن .. سبق السيف العذل

وطرأ على الشيخ موافى ضعف فجأئى فحملناه و جثة ابنته الى حجرة النوم . وأرسلنا الفتى الفلاح ليخبر البوليس و يستدعى أحد الاطباء ...

الى الحضيض

الى الحضيض

حدثنى الراوى قائلا :

لا أستطيع أن أحدد بالضبط الوقت الذى عرفت فيه حلمى . ولكنى أذكر أنى رأيته لأول مرة فى « لبتون » عند ما كنت أجتمع مع « شلتنا » يوميا نصدع رؤوسنا بمباحثنا الادبية العقيمة. رأيته مع الرفاق وسلمت عليه ضمنا ثم جلست . وملت على صديق حنفى وقلت له :

— من يكون هذا الافندى ؟

فابتسم وقال هامسا :

— أديب يريد الانضمام الى زمرتنا

ولم تعجبنى هيئته ولكنه حرك فى قلبى نوعا من الشفقة عليه . فقد كان هزيلا شاحب اللون قليل الابتسام تبدو عليه مظاهر الصعلكة فى كل شىء

وتوثقت بينى و بينه روابط الصداقة فعلمت أنه من ساقطى الابتدائية يسكن القاهرة و يتعيش من مرتب متواضع يرسله له والده المقيم فى الريف . وتأكد لى من أحاديثه أن معلوماته سطحية جدا وتافهة

وكان يأتى كل يوم محملا بمجموعة من الكتب ورزمة من الجرائد والمجلات ويتكلم عن أشياء يسميها بالفردية . والقومية الاخلاقية . والبشرية . واللاوعى وما شابه ذلك . فكنت لا أفهم لكلامه معنى . وكان يظهر على وجهه الامتعاض اذا تحدث أحدنا حديث المجون والاستهتار . فكان الرفاق يتغامزون عليه . وكثيرا ما أخرج لى من جيبه قائمة طويلة مكتوبا فيها . . علم الاجتماع . علم النفس . علم ماوراء المادة . علم الفلك . علم اللاهوت علم التنويم المغناطيسى . علم العروض والقوافى الخ . ويقول لى فى حماس وعيناه تلمعان :

— انى أدرس هذه العلوم فى جد واهتمام وسترى لى فى القريب العاجل أبحاثا عميقة فيها . . .

وكنت أباغته فى حجرته الخاصة لأرى الى أى مدى وصل فى دراساته وأبحاثه فأجده ملقى على الكنبة يدخن فى حالة تبلد غريب وأعقاب السجائر مكومة على الارض والدخان عاقد ضبابا كثيفا فى جو الحجرة والتراب يكسو الكتب والاوراق بطبقة سميكة . فلما ينتبه لوجودى يمد لى يده ويبتسم فى استرخاء ويقول :

— ان العمل يرهقنى كما ترى . .

***

وكان صديقنا حنفى قد اختص بتزويد الشلة بأخبار المسارح وصالات الغناء . فجاءنا مرة وقبل أن يمد الينا يده بالسلام قال :

— خبر عظيم أيها الاخوان . لقد افتتحت الآنسة كوثر الراقصة صالة غناء لها وجمعت فيها نخبة من أشهر الراقصات والمغنيات والمنلوجيست فما رأيكم فى سهرة عندها هذا المساء .

فوافق البعض واعترض البعض الآخر وبعد أن هدأت الجلبة تكلم حلمى ولم يكن قد تحركت شفتاه بشىء . وقال وعلى وجهه أمارات الاشمئزاز :

— من هى كوثر هذه ؟

فأجابه حنفى فى حماس :

— أشهر راقصة فى مصر بل فى العالم كله .

فمط حلمى شفتيه وقال :

— بل قل أكبر جرثومة على سطح الأرض .

واحمرت عينا حنفى وقال :

— وهل تعرفها

— أو تريد منى أن أعرف مثل هذه الافاعى القذرة . لاأدرى

لماذا تسكت ادارة الامن العام عن مطاردة أمثال هؤلاء البغايا .

فأدار حنفى ظهره له وقال موجها كلامه لنا :

مخبول . مخبول . .

وملت على حلمى وقلت له :

— ولكنك سترافقنا على أى حال .

فأظهر سخطا شديدا و رفض رفضا قاطعا . ولكن بعد محاولة بسيطة منى قبل أن يذهب معنا وكانت حجته فى ذلك أنه فى حاجة لدرس هذه البيئة المنحطة وكتابة بحث تحليلى عنها .

وذهبنا الى الصالة . و رقصت الآنسة كوثر فى تلك الليلة رقصا أقام جمهو ر المتفرجين وأقعده وضج المكان بالتصفيق وأصوات التهليل . وسألت حلمى مستطلعا فقال :

— ياله من جمهو ر سخيف . .

وعادت كوثر الى رقصها وأخرج حلمى جريدة من جيبه وجعل يطالع فيها . ولاحظت عليه أنه كان يختلس النظر الى الراقصة بعيون تلمع فيها الرغبة المكبوتة . ولكنه كان يلتفت الىّ من حين لآخر ويقول متململا :

— ألا تنتهى هذه السهرة ؟

فصرخ فيه حنفى قائلا :

— وما الذى يمنعك من الخروج . ان الباب يرحب برحيلك

فأجابه حلمى وهو ينظر اليه فى احتقار :

— سأخرج عندما أريد أن أخرج . .

وعاد الى جريدته يطالع فيها .

وكنا على أبواب الصيف وقد بدأ الناس يهجرون العاصمة الى الثغر . وانتقلت الوزارات الى مصيفها فى بولكلى وكنت إذ ذاك موظفا فى الخارجية وأسعدنى الحظ أن أكون ضمن الموظفين الذين اختارهم الوزير ليعملوا معه فى اسكندرية

وعلمت أن بعض الرفاق سافر الى رأس البر والبعض الى الريف وبقى الآخرون فى مصر ملازمين لبيوتهم . وانقطعت أخبار الجميع لأننا كنا مضربين عن تبادل كتابة الخطابات .

ومن الغريب أننا لم نتفق على شىء اتفاقنا على هذا الاضراب .

ومرت الايام . وبينما كنت أركب ترام الرمل من سان استفانو الى البلد ناولنى أحد الغلمان اعلانا من اعلانات المسارح استلفت نظرى فيه صورة مكبرة عرفت صاحبتها لأول وهلة . فنشرت الاعلان أمامى وأنا أبتسم وقرأت :

الآنسة كوثر

الراقصة العالمية المشهورة

تحيي الاسكندرانيين الكرام وجمهور زبائنها المصيفين

وتخبرهم بأنها اعتزمت قضاء شهر أغسطس بأكمله

فى الثغر

تعالوا شاهدوها مع فرقتها العظيمة فى

تياترو البلفى

كل مساء كل مساء

و بعد أن تأملت الاعلان برهة دعكته فى يدى ثم قذفت به من الترام . وأخذت الاهرام من جانبى و بدأت أطالعه .

ولما وصل الترام محطة الرمل قصدت الى محل أتينيوس فوجدت الاستاذ برتران المحامى فى المختلط ينتظرنى . وكنت على ميعاد معه لدرس النزاع القائم بينى و بين مدام « دينا » بخصوص ايجار منزلها .

و بينما كنت مهتما بشرح مسألتى للاستاذ اذ حانت منى التفاتة فوجدت شخصا مهندماً يدخل القاعة استرعى انتباهي .. و بغتة صحتُ فى عجب

— حلمى

فالتفت الىّ . ثم دنا منى مبتسما وهو يختال فى بدلته الرمادية الأنيقة ذات الكرافت الاحمر والمنديل الذى من نفس اللون . وكان طربوشه معوجاً فى رشاقة . وراعتنى تلك الرائحة الجميلة التى كانت تتضوع منه . وسلّم علىّ فى شوق وأنا أنظر اليه مبهوتاً . وبعد أن تبادلت معه كلمات السلام والسؤال عن الصحة قلت له :

— أممتزم الاقامة طويلا فى الثغر ؟

— بضعة أيام

— فقط ؟

— ربما مكثت أسبوعا على الاكثر

— والاخوان كيف أحوالهم .

— لم أقابلهم مع الاسف من مدة .

— ولا حنفى ؟

قلت ذلك وأنا أبتسم اذ كان معروفا عندنا أنه وحنفى لايتفقان على رأى . ويقوم بينهما دائماً نزاع مستمر . وكنا نسميهما بالضرايز . فابتسم ابتسامة خاطفة . وحول نظره عن نظرى وقال :

— أراه أحيانا فى صالة كوثر . .

فقلت وقد ازداد عجبى منه :

— أوَ تتردد على صالة كوثر الآن ؟

فأمسك بيدى وقال بعد تفكير قليل :

— انى أدرس هذه الاوساط . أدرسها جيداً

وهزّ يدى وقال فى ابتسام :

— سأراك بالطبع . أين تسكن ؟

— شارع ابراهيم باشا الديب بمحطة ثروت باشا

— اذن أو رفوار

— أو روفوار

وعدت الى الاستاذ برتران وتابعنا حديثنا عن منزل مدام « دينا » . . ولما انتهيت ودعته وخرجت . وذهبت الى شارع سعد زغلول لاتمشى فيه قليلا . ولاتفرج على واجهات دكاكينه . ولم أشعر إلا ويد وضعت على كتفى فالتفت فاذا بحنفى . فصحت على الفور :

— الله . وانت أيضاً هنا !

فأجابنى بدون امهال :

— أظنك قابلت حلمى ؟

— كان معى منذ برهة فى أتينوس

وأمسكت بيده وهززتها وأنا فى سرورٍ كبير وقلت :

— والله وحشتنا جداً يا حنفى

وكنت أحب حنفى وأفضله عن بقية الاخوان لطيبة قلبه وميله للمرح والتهييص

وتابعت حديثى معه قائلا فى دعابة :

— أظنك أتيت مع حلمى فى قطار واحد ؟

— هذا هو الواقع

— مدهش .

— ليس هناك أى دهشة اذا علمت أننا نلازم بعضنا الآن ليل نهار

— كلام جد ؟

— غاية فى الجد . . انما نحن مع ذلك أعداء

— ما هذه الالغاز ؟

— ألا تعلم أننا نتنازع نحن الاثنان حب غانية واحدة . .

فقلت بلا تفكير :

— كوثر ؟

— مظبوط . .

فانفجرت ضاحكا حتى ادمعت عيناى وقلت:

— ولكن لمن الحظوة ؟

فنظر حنفى الى السماء وقال :

— اللئيمة تعبد المال .. وأنا كما تعلم على أد حالى

— وحلمى ؟

فحدق فى وجهى فى جد واهتمام وقال :

— لا أدرى من أين يأتى بالمال . . لم أكن أصدق فى حياتى أن هذا الصعلوك الغبى سيغدو يوما ما منافسى

وعزمته على العشاء فى مطعم جيوفانيدس . وقضينا الوقت نتحدث عن حلمى وعن منافسته له فى حب كوثر . ولما انتهينا من الطعام أوصلت صديقى الى صالة البلفى ودعانى لمصاحبته فاعتذرت بمختلف الأعذار ووعدته على أمل اللقاء فى اليوم التالى .

ومن سوء حظى أن جدت عندنا فى وزارة الخارجية أشغال اضطرتنى وبعض زملائى على العمل الى ساعة متأخرة فى المساء أياماً متوالية . وحل يوم الجمعة فأحببت أن أقضيه كله فى البيت متمتعاً بالوحدة والكسل . وتمنيت أن لايقلق راحتى أحد . ولكن فى الساعة الثالثة بعد الظهر بينما كنت مرتدياً بيجامتى ومتمدداً على الشيزلونج أتصفح فى تراخى « المصور » إذ دخل علىّ حمزة السفرجي وقال لى وهو يقدم بطاقة :

— ان البيك صاحب البطاقة منتظر سعادتك فى حجرة الضيوف ويلح فى مقابلتك لأمر هام .

فأخذت البطاقة منه وألقيت عليها نظرة خاطفة وأنا أدمدم .

— حلمى .

ثم رميتها جانباً . وقمت وأنا أتمطى . وقلت لحمزة :

— أخبر البك بأنى حاضر اليه . واعمل القهوة على عجل .

وذهبت الى حجرة الضيوف فلما رآنى حلمى قام مسلماً فى ترحاب كبير وقال لى :

— آسف إذ أنى أزعجتك

— مطلقاً . وأرجو أن تعذرنى لمقابلتك فى هذه الهيئة الغير المحتشمة .

— اوه .

وكان حلمى مرتدياً بدلة غير التى شاهدتها عليه فى اتينيوس. لونها كحلى وغاية فى الأناقة . وكان يتضوع منه نفس العطر الجميل الذى شممته منه فى مقابلتى الاولى .

وبعد مقدمة وجيزة قال لى وهو ينظر أمامه :

— لقد جئتك فى مسألة هامة

— خيراً إن شاء الله

— أنا مضطر الى العودة اليوم الى مصر لمقابلة والدى . ومحتاج الى سلفة خمسة جنيهات لأسدد منها حساب اللوكاندة ومصاريف السفر . سأردها اليك حال وصولى مصر وان أردت

أرسلتها لك بالتلغراف . لم أكن أرغب فى مضايقتك بهذا الطلب ولكنك تعلم اننى لاأعرف أحداً أستطيع أن أركن اليه فى هذا البلد سواك . وقد طرأت علىّ ظروف غريبة أتت على كل ماعندى . . كن واثقاً أن المبلغ سيصلك غداً . .

وتذكرت جملة حنفى التى قالها لى فى شارع سعد زغلول وهى : لا أدرى من أين يأتى بالمال . ولكن حلمى اندفع فى كلامه وأخرج لى من جيبه برقية أراها لى فاذا بها من والده يعلمه فيها بقدومه الى القاهرة . ثم ناولنى خطابا قال لى انه من أبيه أيضاً وأشار لى على جملة يقول فيها : أما المبلغ فسأعطيه لك فى مصر عند مقابلتى لك . واختلطت فى رأسى الافكار . ولم أشعر إلا ويدى تخرج المحفظة من جيبى وتناول حلمى ورقة مالية من ذات الخمسة جنيهات . . ورأيت حلمى يهز يدى شاكراً ويقوم نحو الباب وأنا بجانبه وكان يقول لى :

— كن واثقا أن المبلغ سيصلك غداً ...

وعدت الى حجرة نومى وأنا منقبض النفس . وصرخت على حمزة السفرجى وقلت له غاضباً :

— إياك أن تزعجنى فى راحتى بعد الآن . اذا جاء أحد يطلب مقابلتى فأخبره بأننى غير موجود

وأغلقت باب الغرفة بشدة

وانقضى أسبوع على مقابلتى هذه لحامى ولم يصلنى أى شىء منه . ورأيت حنفى مرتين ولكنى لم أكاشفه بكلمة فى الموضوع . وبينما كنت ذات مساء فى الكازينو جالسا مع بعض زملائى فى الوزارة رأيت حلمى سائراً مع زمرة من الرفاق الذين يدل مظاهرهم على أنهم ممن لايشرفون الانسان بصداقتهم وكان الجميع يتكلمون بصوت عال ويضجون بالضحك والتنكيت ورآنى حلمى ولكنه حول رأسه سريعا واختفى مع زملائه فى جمهور المتنزهين . فشعرت باشمئزاز منه . وعولت على أن أتجاهله هذا المساء

ومرت الايام وقابلته مرة أخرى على رصيف الميناء الشرقى فى الموضع الذى أمام « التريانو » وكنا وجهاً لوجه فتقدم نحوى مهللا واندفع يتكلم عن أشياء بعيدة كل البعد عن موضوع الخمسة الجنيهات وعن تهربه منى فى الكازينو . ثم هز يدى واختفى . وتابعت سيرى وأنا أبتسم فى امتعاض وتعجب .

وانقضى الشهر الذى اعتزمت كوثر أن تمضيه فى الثغر . وعادت بفرقتها الى العاصمة ولم أعد أر أثراً لا لحنفى ولا لحامى ..

وانتهى موسم الاصطياف الحكومى وانتقلت الوزارات الى مقرها الشتوى فى القاهرة . وعدت لمقابلة الشلة فى لبتون فوجدتهم كلهم لاينقصهم الا حلمى . وروى لى الاخوان أخبارا غريبة عنه . فقد اختلس من بعض أقاربه مبلغاً لايستهان به وزور مرة امضاء والده .

وحدث مرة وأنا مار فى شارع المغربى إذ رأيت حلمي . وكنت لم أشاهده منذ شهور . ولمحنى فدنا منى وسلم على وكان مرتديا هذه المرة بدلته الرمادية التى رأيته بها فى اتينيوس . وكانت قذرة غير مهندمة فسلمت عليه فى اقتضاب وبرود وتابعت سيرى غير ملتفت اليه ولكنه سار بجانبى صامتاً . وقضينا بضع دقائق ونحن لانتبس بكلمة . وتظاهرت بعدم الاهتمام به . وأخيراً انحنى علىّ وهمس فى أذنى :

— أنا معذور فى ريال .. ريال واحد

وهبت على رائحة أنفاسه المخمورة . والتفت نحوه وأنا عازم على طرده . فقابلتنى عيناه المربدتان الذابلتان . وكان وجهه هزيلا محتقنا مخططاً بتجاعيد متزاحمة . ولاحظت أن شفتيه تتحركان . فهل كانتا ترتعشان أم كانتا تلفظان بعض الكلمات الغير المسموعة . وتجسم أمامى فى شخص حلمى البؤس والتدهور فى أقصى معانيهما

فخفضت بصرى وأخرجت الريال من جيبى ومددت له يدى فخطف الريال منى متلهفا . وهو يردد لى كلمات الشكر . وأسرعت فى مشيتى مبتعداً عنه وأنا أشعر بكابوس جاثم فوق صدرى

ومرت الايام . ولم أعد أرى حلمى . وبدأت أنساه . وكنت ليلة فى بار اللواء مع الشيخ الزينى شيخ الطريقة الحسينية أناقشه فى بعض المسائل الدينية . وكان من عادتى أن أمر على بار اللواء مرة فى الاسبوع لأقضى السهرة مع صديقى الشيخ الذى جعل محله المختار هناك . ورأيت بغتة حلمى أمامى . ولا أدرى من أين أتى . وتقدم نحوى بلا سلام ومال على وقال :

— أرجو أن تسمح لى ببضع دقائق ..

ونظرت اليه متضايقاً فتابع حديثه قائلا :

— أؤكد لك أننى لن أطلب منك مليما واحداً

وكان نظره قلقاً وعضلات وجهه تلعب فى حركة آلية . فاستأذنت من الشيخ وسرت معه حتى نهاية القهوة . ووقف هناك وقال لى وهو ينقل بصره من موضع الى آخر :

— لقد صار لى الآن ثلاث ساعات وأنا أبحث عنك

فقلت له :

— ولكن لأى غرض ؟

فأمسك يدى و شد عليها شداً عصبياً وقال :

— أنا على حافة الهاوية فاذا لم تتقدم و تنقذنى سقطت الى الحضيض

— أفصح ؟

— لم أفكر إلا فيك دون أصدقائى كلهم أو قل من تبقّى لى من أصدقاء . احمنى من نفسى . خذنى عندك وقيدنى وانزل علىّ من العقاب ما أستحقه بشرط أن تشفينى

— من أى شىء ؟

— قلت لك من نفسى .. أنقذنى منها ..

و بدأ صوته يعلو متهدجا وعيناه تتندى بالدموع . و تابع كلامه وهو فى انفعال شديد قائلا :

— أشعر بكره شديد لشخصى .. لقد أصبحت رجلا دنيئا محطما سافلا مسلوب الارادة ..

أخذ يصرخ وهو يبكى قائلا :

— قلت لك أنقذنى .. أنقذنى ..

و بدأ الناس يلتفتون نحونا . وحاولت أن أهدئه ولكن بلا جدوى . وأخيرا رأيت عربة أجرة مارة بجوارنا فأوقفتها وأركبته فيها وأنا معه . وسرنا ووجهتنا منزلى . و بدوتْ حالته

تهدأ تدريجياً . وكان يتمتم وهو يشد على يدى

— لاتتركنى . لاتتركنى .

ووصلنا الى المنزل ودخلنا وجلست أمامه فى حجرة الضيوف وقلت له

— أوضح كل شىء :

فأخرج من جيبه خطابا أعطاه لى وقال لى :

— اقرأ

وقرأت الخطاب فاذا به من والده ينذره فيه إنذارا نهائيا مصحوبا بأقسام غليظة بأنه ان لم يسافر اليه فى أول قطار من مصر فانه سيعلن الى الملأ تبرؤه منه وسيحرمه من كامل حقوقه فى كل مايملكه . وكانت لهجة الخطاب شديدة للغاية فالتفتُّ اليه وقلت :

— وعلى أى شىء عزمت ؟

— لا رأى لى ولا عزم . تركت كل هذا لك .

فصمتُ برهة أفكر . ورأيت من واجبى أن لا أخيب ظن هذا البائس التعس فىّ فالتفتُّ اليه وقلت :

— اسمع ياحلمى . أرى أن تبيت عندى هذا المساء ثم نسافر سويا الى والدك فى الصباح المبكر . وانى كفيل باصلاح كل شىء يجب أن تبدأ حياة جديدة

فأجابني في لهجة ذليلة وهو مطأطئ الرأس :

— قابل بكل شيء

— اتفقنا

وناديت على حمزة السفرجي وطلبت منه أن يهيء فراشاً لحامي فصدع بالامر . وهيأ مرقدا وثيرا على احدى الكنبات العريضة . ودنوت من حامي ولاطفته على كتفه وقلت :

— سأتركك لتنام فأنت في حاجة الى الراحة .

فنظر الى قائلاً كالطفل الذي يخشى النوم في الظلام منفردا وأدركت مايجول بخاطره فأتممت كلامي قائلا :

— وسينام معك في نفس الحجرة حمزة السفرجي . واذا احتجت لشيء فما عليك الا أن تطلبه منه . هدئ روعك ونم مستريحاً ..

فهز يدي بلا كلام وخرجت وفي اثري حمزة ولما صرنا منفردين قلت للسفرجي :

— هذا شاب مسكين مصاب بضعف الاعصاب كن لطيفا معه وقم على خدمته كاللازم ثم ناولته بيجامة من بيجاماتي وقلت له:

— واذهب بهذه اليه .. وجهز لنا في الصباح المبكر فطورا جيدا فسنسافر في قطار الساعة الثامنة

وخرج حمزة السفرجى . وبدأت أخلع ملابسى استعدادا للنوم وأنا مغتبط من نفسى فخور بعملى .

وفى اليوم التالى استيقظت من النوم على دق على الباب وصوت حمزة يقول لى فى لهجة غير عادية :

— سيدى . سيدى

وكانت الساعة السادسة فقمت من السرير وفتحت الباب وقلت:

— ماذا ؟

فبادرنى بقوله :

ان الضيف غير موجود

فدهشت وقلت:

— كيف ؟

— غير موجود يا سيدى . قد بحثت عنه فى كل المنزل فلم أعثر عليه

وذهبت من فورى الى حجرة الضيوف فوجدت الفراش خالياً وملابس حلمى مكومة بجواره فقلت لحمزة :

— لقد خرج بالبيجاما إذن ؟

— هذا ما أعتقده .

— ولكن ألم تحس بشئ وأنت نائم ؟

— مطلقاً

وكنت على وشك أن أرسل الخادم ليبلغ البوليس . ولكن حانت منى التفاتة نحو المائدة الصغيرة التى كانت بجوار الفراش فأبصرت عليها ورقة استرعت انتباهى . فأخذتها وقرأت فيها ما يأتى :

لن أطمع فى عفوك بعد الآن وشكراً لك .

حامى

فصمت وأنا أبتسم ابتسامة مريرة . ثم قلت للخادم :

— اجمع ملابسه فى صرة واذهب بها بعد انتهاء عملك الى حجرته بشارع المدبولى رقم ٧٠ .

* * *

وشاءت الظروف أن أعين قنصلا فى بيريه بعد هذه الحادثة بأيام . وشددت الرحال الى مقر وظيفتى . ومكثت فيها عاماً كاملا ثم عدت بالاجازة الى مصر .

وفى اليوم التالى لقدومى ذهبت الى لبتون لأرى الرفاق فقابلونى فى تهليل كبير . وجلست أحدثهم عما رأيته فى بلاد اليونان وجعلوا يروون لى ماوقع فى مصر أثناء غيبتى . ولم نتكلم عن حامى بكلمة إذ كان موضوعه خارج دائرة تفكيرنا . وبعد العشاء

اقترح علينا حنفى أن نذهب الى إحدى صالات الغناء . فقلت له وأنا ابتسم :

— أما زلت غارقاً فى الصالات ؟

— وهل يوجد شئ يستحق الفرجة غيرها .

ومشينا حتى وصلنا الصالة وتقدم حنفى وأخذ لنا التذاكر وسرنا نحو الباب ورأيت أثناء دخولى شخصاً ملطوعاً بجوار الحائط فى حالة تبلد كأنه نعسان . وخيل لى أننى أعرفه . وكانت هيئته زرية للغاية . يلبس جلباباً قذراً عليه جاكتة لاتصلح ممسحة للبلاط . وكان يتثاءب فى هيئة كريهة وبصوت بشع . ويتحشأ بين حين وآخر . وخطر على بالى خاطر ارتجفت له وسألت على الفور حنفى وأنا أشير له فى اتجاه هذا الشخص فقلت :

— من يكون ؟

فأجابنى بلا مبالاة وهو يدفعنى للدخول :

— ألا تعرفه ؟ أتراه قد تغير الى هذا الحد ؟

فقمتمت وأنا أشعر بغصة فى حلقى

— بل أعرفه أعرفه

وبدأ التمثيل فظهرت مغنية مضتنا حيناً بآهاتها المبتذلة ونغماتها المملة ، ثم ظهر منولوجيست القى منولوجا سقيما لا أدرى كيف

احتملته حتى النهاية . وتبعته راقصة كانت تغنى وتشوح بيديها وتلعب خصرها فى حركات توجب الرثاء ...

ولما تم التمثيل وخرجنا وجدت حلمى ملطوعا فى موقفه الذى شاهدته عليه وأنا داخل وكان كما تركته غارقا فى تبلده يتجشأ ويتثاءب فى شكل بشع . وتخلفت عن الجماعة وذهبت اليه فعرفنى ورأيت شفتيه المصفرتين تنفرجان عن ابتسامة مريضة وسمعت صوته يقول فى حشرجة :

— الحمد لله بالسلامة

ثم مد لى كفه فى شكل فهمت منه غرضه . فأخرجت من جيبى قطعة من ذات الخمسة قروش ووضعتها فى يده . كل ذلك وأنا صامت . وتركت الصالة وأنا مشمئز من العالم كله ...

أبو علی
عامل ارتست

أبو علي عامل ارتسمت

— ١ —

كان حسن عبد الكريم المشهور « بأبو علي » فتى يتيما يعيش مع عمه وعمته فى منزل واحد يشتغل فى دكان عمه ، يبيع أصناف البقالة ويعمل حساب اليومية . يقضى أيامه هانئاً بحياة هادئة لاتتغير . من المنزل الى الدكان ومن الدكان الى المنزل . ويقوم بفروضه الدينية من صلاة وصيام وما شابههما على الوجه الامثل مما جعل عمه يثنى دائما عليه ويدعو له .

وقد تعلم حسن فى المدارس الابتدائية . ووصل الى السنة الرابعة ولكنه لم يتعداها . وعمل المستحيل سنين متوالية لينال الشهادة الابتدائية فلم يوفق . فألحقه عمه بالدكان وأشركه معه فى العمل . وكان قزما مشوه التركيب هزيل الجسم بيدين طويلتين كيدى الغوريلا . ووجه مستطيل أعجف بأنف طويل مدلى على فمه وعينين غائرتين فى حدقتيهما

وحدث أن تعرّف حسن بفتى يدعى عبد الواحد ممن لهم صلة بدور التمثيل . شاب خامل يعيش عالة على أمه وليست له صناعة

نكسب منها . قنع من دنياه بنهار يمضيه متسكعا على القهاوى وليلة نضيها فى احدى دور التمثيل .

وتوثقت بينهما أواصر الصداقة فكانا يتقابلان كثيرا فى لدكان ويقضيان سويا أوقاتا سعيدة . وكان حديث عبد الواحد ع حسن لايتعدى دائرة التمثيل . وعبد الواحد لايجيد التكلم الا هذا الموضوع وله باع طويل فيه . وكان يروق لحسن حديث صديقه فينصت له فى اهتمام . واستطاع فى مدة قليلة أن يلم بكل كبيرة وصغيرة عن المسارح المصرية . وازداد شغفه بحديث صديقه فكان يستزيده القول دائما ويمطره بوابل من الاسئلة . ويستعير منه كل ما يقع تحت يده (يد صديقه) من روايات مطبوعة أو منسوخة أو مقالات نشرتها الصحف عن التمثيل ويقرأها فى سرور كبير .

ومرت الايام على هذا المنوال ردحا من الزمن .

والتفت حسن الى صديقه مرة وقال له :

— وددتُ لو استطعت أن أشاهد التمثيل مرة فى حياتى .

— ومن يمنعك ؟

— ربما عمى

— أتريد أن أتوسط لك فى الامر . ان عمك يثق فى .

فتهلل وجه حسن وقال لرفيقه بلهفة :

— افعل وشكراً لك

وقام عبد الواحد من فوره وقابل « العم » وشرح له الموضوع فرفض الرجل الطلب معززاً رفضه بأن التمثيل بدعة من البدع . ولكن عبد الواحد أكد له أن اعتراضه فى غير محله إذ أن دور التمثيل أشبه فى زمننا الحاضر بدور العلم يتلقى فيها الجمهور الحكمة والفضائل . وبعد إلحاح ورجاء عظيمين قبل العم أن يسمح لحسن بمرافقة عبد الواحد . فطار حسن فرحا وقبل يد عمه . ثم انتحى بصديقه ناحية منفردة وسأله فى انفعال :

— متى نذهب ؟

— اليوم فى الساعة التاسعة

وبعد صلاة العشاء خرج الرفيقان قاصدين دار التمثيل حيث كانت تمثل جمعية أنصار التمثيل رواية « الممثل » . وكان عبد الواحد يشرح لرفيقه أثناء الطريق موضوع الرواية ويهيىء ذهنه لكل ما سيراه .

ودخلا الصالة بلا تذاكر إذ كان عبد الواحد معروفا من الجميع . وأخذ حسن يدور بعينيه حوله فى حيرة واعجاب

وبدأ التمثيل وحسن يزداد دهشة وافتتاناً بما يراه . وبين

الفصول ذهب به عبد الواحد داخل المسرح وجعل يفرجه عليه وكلما مرا بممثل فى بزته الغريبة وقف حسن أمامه يمعن النظر فيه بدهشة . ومال على زميله مرة وهمس في أذنه قائلا :

- أكاد لا أصدق أن هؤلاء الممثلين من البشر .

فابتسم عبد الواحد وقال :

— ولماذا ؟

— ألا تحس بشيء غريب ينبعث منهم ؟

- شيء غريب

— شيء لا أستطيع أن أصفه لك بلسانى ولكننى أحس به بروحى .

وانتهى التمثيل وخرجا صامتين . وأخيرا قال حسن :

- وهل يمكنك حقاً أن تحضر التمثيل كل ليلة ؟

— هذا إذا أردت . ولكننى لا أفعل

— أنت سعيد جدا يا عبد الواحد . ولكنك مع الاسف لاتقدر هذه السعادة

— ٢ —

واستطاع حسن أن يحضر التمثيل بعد ذلك عدة مرات . ومرت الايام . ولوحظ عليه بعض الانقباض والنفور من الناس .

وكان يعمل فى الدكان بلا نشاط . واذا أقلقه أحدهم وهو غارق فى أحلامه صاح متذمراً ساخطا .

وقال له عمه مرة وهو يلاطفه :

— اذا كنت مريضاً يا حسن فاذهب واستريح اليوم فى البيت .

فأنكر حسن مرضه فى شىء من الجفاء . ورفض أن يذهب الى المنزل

ولاحظ عمه أنه بدأ يتغيب ليلا بدون إذنه . وخامره الشك فى أمر هذا التغيب وأنه ربما يكون من أجل التمثيل فمنعه عن السهر وشدد عليه المراقبة

وشاهده بعضهم يخفى كتاباً صغيراً فى جيبه . ويخرجه ليحفظ منه كلما سنحت له الفرصة بذلك

وجاء يوما عبد الواحد فأخذه حسن من يده ودخل به الى مخزن الدكان المظلم وقال له بلهجة المنتصر :

— لقد حفظتُ الرواية بأسرها

— أى رواية ؟

— رواية « الممثل » التى أعرتنى إياها

— آه . ولكنك لم تحدثنى عن ذلك قبل الآن

— حفظتها كلها . . انتظر

وأخرج من جيبه الرواية وفتحها اعتباطاً وناولها لصديقه وقال له :

— استمع لى

وجعل يلقى عليه بعض أدوار الرواية القاءً تمثيلياً وعبد الواحد يستمع له فى اندهاش

ولما انتهى قام اليه عبد الواحد وعانقه وهو يقول له :

— أحسنت كل الاحسان يا حسن . ولكن كيف استطعت أن تجيد التمثيل هكذا ؟

فرفع حسن رأسه وقال :

— ان التمثيل هبة يمنحها الله لمن يشاء

وصمتا برهة ثم قال عبد الواحد :

— انهم سيعيدون تمثيل رواية « الممثل » عن قريب فما رأيك فى الظهور مع فرقة الجمعية فى الدفعة الآتية ؟

فلمعت عينا حسن وقال :

— لا بأس . أقبل . . انما

— انما عمك . . اليس كذلك

فاجاب حسن محتدا :

— كلا . سأذهب رضى عمى أم رفض

ومرت الأيام وحسن يذاكر فى الرواية ويحبس نفسه فى مخزن الدكان المظلم ليمثلها بمفرده أو أمام صديقه . وكان عبدالواحد قد اتفق مع الجمعية على أن تقبل حسن ضمن أفراد الكومبارس لليلة التمثيل

وظهر الاهمال على كل أعمال حسن ولم يعد يهتم بفروضه الدينية . وأخذ يتغيب أحياناً عن الدكان . ونبهه عمه الى ذلك فى شدة وحذره عاقبة الأمر . ولكن حسن لم يبال بنصائح عمه فكان ينسل من الدكان مع صديقه عبد الواحد ليحضرا بروفات الرواية .

وحدث مرة أن جاء الدكان عبد الواحد وبدأ يتهامس مع حسن فقام اليه العم غاضباً وطرده فى الحال واتجه الى حسن فضربه قلمين حارين على صدغيه

— ٣ —

وحلت ليلة التمثيل . وأقفل الشيخ مبروك (العم) دكانه وعاد الى المنزل مع حسن . وبعد العشاء دخل الرجل حجرته وجاءته أم خليل زوجته بالقهوة . وكان حسن يعلم أن العم متى دخل حجرته وبدأ قهوته وصلاته فلن يخرج منها إلا فى صباح

اليوم التالى . فاطمأن قلبه وخلع حذاءه وانسل من المنزل انسلال اللصوص .

وكان عبد الواحد ينتظره أمام دار التمثيل .

ودخل حسن المسرح من باب الممثلين وقلبه يدق وعيناه تلمعان . وحشروه ضمن الكومبارس . وكان أحد أفراد الفرقة منشغلا بألبابهم ملابس التمثيل وعمل الماكياج لهم . وارتدى حسن بدلته وهو لا يصدق عينيه ثم دهنوا له وجهه وأفهموه ما يجب عليه عمله . وانتحى حسن برفيقه وقال له :

— أتعلم يا عبد الواحد ان أكبر وأعظم ساعة فى حياة الممثل هى تلك التى يقفها أمام المرآة وهو خاضع لعملية الماكياج .

وبدأ التمثيل . وانشغل حسن بتلقى التعليمات والظهور أمام الجمهور . وكان كلما خلا بنفسه قصد على التو حجرة الكومبارس وعدل هندامه أمام المرآة وخطا بعض خطوات فى الفرقة فى رزانة وكمال ويده على مقبض سيفه . ولما انتهى من التمثيل خرج من المسرح وهو في حالة ذهول يسير مقطب الحاجبين . وكان عبد الواحد يكلمه بدون أن يحظى منه بجواب وأخيرا عيل صبره والتفت اليه وقال له :

— مالك لا تتكلم . . هل أنت مريض ؟

فأجاب حسن فى اقتضاب . غير ملتفت الى صديقه :

— كلا لست مريضا . . انما أفكر . أفكر فى أشياء عظيمة

— ٤ —

و بدأت حالة حسن النفسية تتطور تطورا سريعا . فكبرت هواجسه و كثرت أحلامه فكان يرى فى نومه أنه يمثل دور « دافيد جرك » بطل رواية الممثل أمام حفل عظيم من الناس يصفقون له و يهللون فى حماس كبير . وأخذ لايعبأ بنصائح عمه ولا بضربه فكان يهرب من الدكان ليقابل صديقه عبد الواحد فيحضرا البروفات نهارا وحفلات التمثيل ليلا . و بدأ يشعر نحو عمه باحتقار زاعماً أنه جهول رجعى غبى لايفهم فى الفن شيئا . وكان يقف فى الدكان وقفة المتأفف و يحس بامتهان كرامته وهو يبيع الجبن والزيتون للزبائن . وازدادت شعوذته فأخذ يحلق ذقنه وشاربه كل يوم ليزدادا اخضرارا . وكان يقف الساعات الطوال أمام مرآته المكسورة و يشد جلد وجهه و يثنيه على بعضه ليعمل على كرمشته زاعماً أن وفرة التجاعيد فى وجه الممثل دليل على عبقريته . وقد استطاع أن يحصل على بدلة قديمة مهلهلة من بدل التمثيل فكان يلبسها فى حجرته و يمثل بها بعض أدواره المحبوبة . و تملكته

شهوة التمثيل فكان يحبس نفسه فى مخزن الدكان المظلم فى الاوقات التى تقل فيها حركة البيع وينطلق يمثل حتى ينهكه التعب . ويخرج يستقبل الزبائن بوجه محتقن يتصبب عرقا .

وتعرف حسن الى كثير من الادباء والممثلين . فكان اذا رأته فئة منهم طلبوا منه أن يلقى أمامهم شيئاً مما يجيده . فكان يتعزز طويلا ثم يقوم بغتة ويندفع فى التمثيل متحمساً حتى اذا ما انتهى قابلوه بعاصفة من التهليل والتصفيق والضحك

وحدث مرة أن اشتدت حماسته فى التمثيل أمام بعض معارفه وكانوا مجتمعين فى قهوة صغيرة من قهاوى شارع عماد الدين . وازدحم المكان ببعض المارين جاؤا من الشارع على أثر سماعهم صياح حسن العالى . وما كاد ينتهى الفتى من تمثيله حتى علا فى الجو تهليل الحاضرين . وقام أحدهم الى حسن وصافحه مصافحة حارة وهو يقول له :

— لقد أبدعت ياأستاذ ابداعا يقصر لسانى عن وصفه فأهنئك من كل قلبى

ثم التفت الى الجمع المحيط بهما وقال :

— ألا حيوا معى هذا الفنان ولنصح جميعا : فليحى أبو على الممثل التراجيدى الكبير .

وأخذ القوم يرددون هذا النداء وهم يتغامزون . ثم حمله الشخص الاول وجعل يطوف به القهوة والكل خلفه يصيحون . وأخيرا هدأت الجلبة وجلس حسن على مقعده وهو يجفف عرقه ووجهه يطفح سرورا وانفعالا . ثم اشتبك الحديث بينه وبين المحتفلين به فأخذ يحدثهم عن التمثيل حديثا مستفيضا . وقال له الشخص الاول :

— لاأدرى لماذا لاتعمل يا أستاذ فى التمثيل عملا جديا

— عملا جديا ..

— أجل ان لك مواهب كبيرة فلماذا لاتستخدمها ..

فصمت حسن برهة ثم قال :

— ان هذا هو شغلى الشاغل ياسيدى . فلا تظن سكوتى تقصيرا وعندما يحين الوقت سترى نتيجة عملى .

— اذن أنت تعد مشروعا

— أوه

وقال آخر :

— أظن الاستاذ لايريد التصريح بشىء فى هذا الموضوع .

فابتسم حسن ومط شفتيه وقال :

— أوه .. عفواً ياسيدى

ولما انتهى الاجتماع خرج حسن ورأسه يموج بمختلف الافكار وقلبه ينبض بشتى الانفعالات وفيما كان يسير فى الشارع على غير هدى اذ قابل صديقه الحميم عبد الواحد . فصاح به حسن وفرد له ذراعيه على آخرهما وقال له :

— احتضنى ياعبد الواحد وقبلنى

فتقدم عبد الواحد متعجباواحتضن صديقهوقبله . وتابع حسن كلامه قائلا :

— آه لو كنت معنا .لقد كانت ساعة انتصار هائلة

— أى انتصار ياعزيزى

فتوقف حسن عن الكلام قليلا ومال على صديقه وقال :

— اسمع ياعبد الواحد . الا ترى أنه يجدر بك أن تلقبنى من الآن فصاعدا بلقب استاذ بدلا من قولك ياعزيزى .

فأجاب عبد الواحد وهو فى حيرة واندهاش :

— حسناً .. ياأستاذ .

فلمعت عينا حسن . وأخذ يقص على صديقه النجاح الذى صادفه . ولم يسع عبد الواحد الا أن يقول له :

— أهنئك ياأستاذ .. حقاً انها فرصة قد فاتتنى

— اسمع ياعبد الواحد . لقد انتويت القيام بعمل جدى فى

عالم التمثيل . فهل أنت على استعداد لمعونتى

— وهل تظننى أحجم عن مد يد المساعدة اليك

— بورك فيك

— ولكن عن أى عمل تتكلم ؟

— هذا سرى ياعبدالواحد . سأطلعك عليه فى الغد . والآن أنا مضطر الى تركك . ان مشاغلى كبيرة هذا المساء . سأراك غداً فى قهوة « الفن »

— ٥ —

وفى الصباح ذهب حسن الى الدكان متأخراً فوجد عمه قد أحضر فتى يدعى يوسف ليساعده فى العمل . فسر من ذلك واعتقد أن الظروف تخدمه . وعول على مفاتحة عمه فى الامر الذى يشغله .

وعادا سوياً الى المنزل لتناول الغداء . . وكانا يسيران صامتين كأنهما غريبان وكانت أم خليل قد أعدت الغداء فجلسوا حول المائدة يأكلون وهم متجهمو الوجوه . وكان يغمر المكان سكون مقبض للنفوس لا يقطعه إلا نباح كلبة الجيران الذى يشبه نواح الثكلى . ولاحظ حسن على عمه أن الشيخوخة بدأت تقهره وتذله

فالرعشة أصابت يديه والتجاعيد قد غزت وجهه فى شكل مفزع .
أما عمته فكانت ملفوفة الرأس بطرحتها السوداء تأكل ببطء عمل وتتنهد من حين لآخر . ونظر حوله فوجد أثاث الغرفة كما هو ، عمل كل قطعة منه تذكارات لماضى حياته . فتنهد بالرغم منه وقد شعر كأن يداً قوية تعصر قلبه . والتفتت اليه عمته وتنهدت ثم نظر اليهما العم وتنهد . وقال موجهاً كلامه لزوجته :

— أليس من مصائب الدنيا أن أحضر شخصاً غريباً فى الدكان وابن أخى موجود . وقادر على العمل . ولكنه لا يريد مساعدتى

فتنحنح حسن طويلا ولكنه لم يتكلم . وأجابت الزوجة قائلة :

— ماذا نفعل ياشيخ مبروك . . . قسمتنا

— صحيح قسمتنا . . قسمة ذى الطين

ثم وجه كلامه الى حسن وقال :

— لقد عملت واجبى نحوك يابنى . عملته تماما لاينقصه شىء فما حيلتى اذا كنتَ لم تنفع . لقدأدخلتك الكتّاب أولا ثم المدرسة ثانيا مؤملا أن أجدك فيما بعد رجلا نافعا يساعدنا على المعاش . فلم تنفع . . أرسلتك لتتعلم صنعة . ولكنك لم تنفع . . وضعتك

فى الدكان لتتعلم أعمال التجارة فتكون خلفى فى المستقبل . كذلك لم تنفع . اتبعتك بالضرب علّى أستطيع أن أحولك عن السهر وأمور التراترات التى ملأت بها مخك فلم يفد شىء من كل هذا فى سبيل إصلاحك . . ألم يكن من المروءة أن تتقدم نحوى وأنا الآن فى أواخر أيامى وتقول لى : استرح أنت ياعمى ودعنى أحمل عبء العمل بدلا منك .

فتنهدت ام خليل واغرورقت عيناها بالدموع ودمدمت قائلة :

— قسمتنا .. قسمتنا

ومسح العم عينيه ونكّس حسن رأسه برهة وأخذت شفتاه ترتعشان . ثم تكلم قائلا :

— ولكن يا عمى أنا معذور . والله معذور

— معلوم يابنى معذور . ومن قال غير ذلك

— أنت لم تفهمنى ياعمى ولا مؤاخذة

— كيف لم أفهمك ياحسن . أنا فاهمك للغاية

— اذا كنتَ فاهمنى فلماذا تحتقر أقوالى وأفعالى

— لانها أقوال وأفعال مجانين

— يا عمى أنا « ارتست » . والله أرتست

— وما هو الأرتست ياحسن

ووجد حسن عمه فى حالة تسمح له أن يتفاهم معه فقال :

— الارتست ياعمى هو الممثل الفنان .. هو المشخص العبقرى .

فلم يكد يتم جملته حتى بصق الشيخ مبروك فى وجهه محتدا . وقال :

— لعنة الله عليك وعلى أيامك . أتتجاسر أن تقول أمامى بأنك « مشخصاتى »

ثم التفت الى زوجته وقال لها :

— أنظرى ياستى واعجبى . هذا الذى كان ينقصنا على آخر الزمن . ان حسن يتباهى بأنه مشخصاتى

وسألت الزوجة زوجها قائلة :

— وما هو المشخصاتى يا أبو خليل .

— المشخصاتى ياستى « خوَل » لا أكثر ولا أقل .

فاحمر وجه حسن وقال محتجا :

— ما هذا الكلام ياعمى . هذه اهانة كبيرة .

— اذا ماهو « المشخصاتى » ياسى حسن . أليس هو الشخص الذى يصبغ وجهه بالاحمر والابيض ويكحل عينيه . ويلبس البنطالونات الضيقة ويمشى فى التراتر و يتموج و يرقص .

وضربت الزوجة بيدها على صدرها وقالت :

— ما هذه الخيبة ياحسن . أتقبل على نفسك أن تكون من هؤلاء الناس

وغص حسن بريقه وتلعثم ... وتكلم العم قائلا :

— أتظنين ياأم خليل أنني معتقد أن لى ابن أخ اسمه حسن عبد الكريم . لا والله أبداً . عوضى على الله فيه ، عوضى على الله فيك ياحسن . . رح يابنى افعل ماشئت والله لايفتحها فى وجهك . ان الولد يريد أن يفضحنا على آخر الزمن

وقام وهو يبصق على الارض ويتمتم فى انفعال وذهب ليغسل يديه . والتفتت العمة الى حسن وقالت له :

— أيصح أن تُغضب عمك هكذا ياحسن . قم يابنى واستغفره وقبّل رأسه وتب على يديه واترك أمور الهلس التى لا تنفعك

فنظر اليها حسن نظرة شزراء وهو يقول :

— أنتما لم تفهمانى ولن تفهمانى فاتركانى وشأنى افعل ما أريد . وسوف تدركان خطأ كما عند ماتسمعان عني فى المستقبل القريب .

ودخل حجرته مهرولا .

— ٦ —

وتهيأ حسن فى الحال للعمل . فجمع حاجياته فى صرة واحدة ،

ربطها فى طرف عصاته المسرحية الطويلة التى كان يسميها عصاة « ترزياس »

وأنصت طويلا خلف الباب فلم يسمع حركة ما . ووثق من أن عمه وعمته نائمان كعادتهما بعد كل غذاء . ففتح الباب فى هدوء وحذر وخطا خطوتين ثم توقف . والتفت خلفه ليلقى آخر نظرة على حجرته . وأخذ يتمتم قائلا :

— وداعا ياحجرتى المحبوبة . يامستودع أسرارى ومهبط وحيى . يامرتع أحلامى ومنبع عبقريتى . وداعا أيها المنزل العتيق . يامن تلألأ فيك نور طفولتى . .

وأخذ قلبه يدق انفعالا وبدأ صوته يعلو رويدا ويخشوشن وقال :

— . . . وداعا أيضا ياعمى . يامن كنت عقبة فى سبيل آمالى لقد صفحت عنك صفح الكريم فنم بسلام . . وداعا ياعمتى يامن كنت طيبة معى بالرغم من جهلك وغباوتك . . وداعا لكل شىء وداعا . . .

واذا به يتحمس بالرغم منه وقد نسى موقفه متخيلا نفسه على مسرح التمثيل فرفع عقيرته قائلا :

— وداعا للطبل الذى يشب حرارة النفس . وداعا المزمار الذى

يشجى القلب برخيم صوته . وداعا . . وداعا . .

ومشى مشية عطيل وخرج لا يلوى على شيء . وفتح العم عينيه فى انزعاج وأيقظ زوجته وقال لها :

— ألم تسمعى أحد يزعق بأعلى صوته

فمسحت المرأة عينيها وقالت :

— أظنك كنت تحلم يا أبو خليل .

— ٧ —

وطرق حسن أبواب المسارح فقبلته فرقة من الفرق الهزلية ضمن أفرادها ومنحته مرتبا ضئيلا . وبعد ما عمل فيها عشرين يوما استدعاه مدير الفرقة فى حجرته وقال له :

— لقد أفهمناك غير مرة أن جميع أدوارك هزلية فلماذا تصر على اخراجها أدوارا تراجيدية

— لأن طبيعتى تراجيدية ياسيدى .

فتوقف مدير الفرقة هنيهة عن الكلام وهو لا يدرى أيقهقه بالضحك أم يثور ساخطا ويصفع هـذا المعتوه . وأخيرا ابتسم وقال له :

— ان طبيعتك مع الاسف لا توافق جو فرقتنا يا أستاذ

— هذا صحيح . ولكن . . لدى رأى

— انى أرحب بكل رأى تعرضه علىّ

— شكرا ياسيدى . . انى منذ التحاقى بفرقتكم الكريمة وأنا مجد فى تحضير مشروع كبير لترقية فن التمثيل

— وهل أتممته

— على وشك أن أتمه

— اذن يمكننى أن أطلع عليه

— ان الفرصة مناسبة جدا لاطلاعك عليه اليوم . . الموضوع فى حد ذاته بسيط لايكلفك شيئا . وهو أن تسمح بتمثيل رواية جديدة من الروايات الفنية مرة كل أسبوع . لى أن أستعمل مسرحكم وأشتغل بفرقتكم . . . والربح بيننا مناصفة

المدير ابتسامة كبيرة وقال :

— هذا مشروع عظيم ياأستاذ . انما يحتاج الى بحث .

— الوقت أمامك متسع ياسيدى . . ولكن لاتنس المثل الطيب . خير البر عاجله .

وصمت المدير وأخذ يتلاعب بقلمه . ثم رفع رأسه وقال :

— أين كنت ياحسن قبل أن تلتحق بفرقتى ؟

— كنت أشتغل فى دكان عمى

وما هى صنعة عمك ؟

فتردد حسن برهة ثم قال :

— . . . . بقال

— ولماذا تركت صنعة البقالة والتحقت بالتمثيل ؟

— لانى أحب التمثيل وأريد أن أعمل فى سبيل رقيه

— أتريد منى نصيحة يابنى

— قل ياسيدى

— أن تعود الى دكان عمك وتريح نفسك من هذا العناء

— لقد أوقفت نفسى وحياتى على خدمة الفن فلن أحول وجهى شطر غيره

— وهل أنت مصر على ذلك

— كل الاصرار

— اذن . اسمع . لى سؤال بسيط . ألم يخطر على فكرك ولو مرة واحدة انك مهووس

وأحس حسن بصدمة أصابت فؤاده فصمت مبهوتا . ثم تكلم بعد حين وقال :

— ماذا تقول ياسيدى ماذا تقول

— أقول أن الافضل لك أن تعود الى عمك وتشتغل معه

كسابق عهدك

— لقد دس لى عندك الحاسدون . أليست هذه هى الحقيقة .

صرح لى ياسيدى بكل شىء فما زلتُ مستعداً للتفاهم معك

— أى دسيسة وأى حاسدون . ان صبرى نفد وأعصابى بدأت تثور . فأخرج وخذ حسابك من سيد أفندى . وقد انتهى كل شىء

— اذن أنت تخشى منافستى لك . ياللضعف . ولكنى أقسم لك أنى مافكرت لحظة فى الاضرار بك بل كنت أريد لك الخير دائماً

فقام المدير وأخذ يدفع حسن نحو الباب وهو يصرخ على سيد أفندى قائلا :

— يا سيد أفندى . يا سيد أفندى . إصرف لهذا الملحوس باقى حسابه وأخرجه من المسرح بلا إمهال

— ٨ —

وعاد حسن الى طرق أبواب الفرق والجمعيات التمثيلية . والتحق فعلا بمعظمها ولكنه لم يستقر فى واحدة منها . إذ كان دائما يطالب بالادوار الرئيسية ويتطفل على الممثلين بالارشادات

ويتدخل فى ادارة المسرح وينقد الروايات ويصلح المؤلفين . ومن ثم لفظه الجميع ولم يعد يقبله أحد .

وأخيراً عثر على فرقة جوالة من فرق الاقاليم لم تكن تعلم شيئاً عنه فقبلته . ورأى حسن أن يكون صبوراً وأن يرضخ لحكم الاقدار ريثما تتحسن الاحوال . فقنع بالادوار التى كانت تمنح له . واعتزل الناس ما أمكن وخاصة زملاءه الممثلين . وكان كثير الصمت متجهم الوجه يسير منفرداً يجتر مشاريعه اللانهائية . وأراد أحدهم مرة أن يباسطه فقال :

— مالك يا أستاذ ملازم الصمت والوحدة . أيكون الحب قد طرق قلبك ؟

فشمخ حسن برأسه وقال :

— الحب ! انى لا أعرفه

— هذا محال

— ياصديقى ان المرأة المفروض علىَّ حبها لم تخلق بعد . . .

ولم يطق حسن أن يعيش هكذا معيشة غير منتجة فعاد يبدى ملاحظاته القاسية على التمثيل والاخراج . وقامت بينه وبين مدير الفرقة مشادة انتهت بطرده فرجع الى القاهرة وقد أقسم أن يقاطع الفرق والجمعيات التمثيلية وبر بقسمه فلم تطأ قدمه عتبة أى مسرح .

ولم يكلم أحداً من الممثلين وكان اذا مرّ بجماعة منهم وسمعهم يتكلمون خيل اليه أنهم يقصدونه فى كلامهم . فكان يرمقهم بنظرة احتقار وكبرياء . واذا سمع واحداً منهم يضحك ظنه يهزأ به فيبصق على الارض ويسير رافع الرأس وعلى وجهه طابع الاشمئزاز . وكان يقضى معظم وقته مع عبد الواحد فى قهوة الفن . ملازماً الصمت . ينظر الى الشارع نظراً شاردا . ثم يلتفت أخيراً الى صديقه ويقول له :

— يالهم من ضعاف العقول أطفال !

وشحت نقوده فتقشف فى عيشته ولم يقبل أى مساعدة من صديقه . وضاقت الدنيا فى وجهه فهجر القهوة وبدأ حياة التجول المملة الشاقة . وكان اذا أنهكه التعب جلس فى مكان منعزل على احد الارصفة يفكر فيما انتهى اليه من الشقاء . ثم يزفر زفرة حارة ويقول :

— صبرا صبرا فقد خلق الفنان لكى يتعذب فى الحياة .

وأخيرا زاره عبد الواحد فى حجرته فوجده قد حبس نفسه فيها وآلى على نفسه أن لا يبرحها . وقد بلغ به البؤس منتهاه . فقال له :

— اسمع ياصديق . لقد وجدت لك حلا يخرجك من مأزقك

هذا . وقد سميت لك فكال مسعاى بالنجاح

فأجابه حسن بصوت متهدج :

— ماذا تعنى ياصديق

— أعنى أننى قابلت الشيخ مبروك عمك . وكلمته عنك فقبل أن تعود اليه وهو يرحب بك

فقام حسن غاضبا وقال :

— أنت تفعل هذا ياعبد الواحد . حقا انك لم تعرفنى بعد

— ماذا . أترفض الرجوع الى عمك

— كل الرفض

— ولكن هذا جنون ياحسن . أتريد أن تقضى على نفسك

— الموت فى سبيل المبدأ شرف وجاه .

وأخذ يسير فى الغرفة ذهابا وايابا ويداه خلف ظهره . وبعد صمت قصير عاد عبد الواحد الى الكلام فقال :

— ولكن عودتك الى عمك ستكون مؤقتة ريثما تتحسن الاحوال فما ضرك فى هذا

— كيف تريدنى أن أعود اليه معتذرا .

— ومن قال لك ذلك . ان عمك هو الذى يدعوك ويرحب بقدومك

ثم توقف عن الكلام قليلا . ودنا من حسن وأسرّ فى أذنه قائلا :

— ان الرجل مريض .. فى طريق الاضمحلال . وقد لاحظت عليه شحوبا وهزالا يدعوان الى القلق والتفكير . وسألت عنه البعض فاخبرونى بأنه يشكو من مرض عضال خفى ...

فأنصت حسن باهتمام . ثم عاد الى سيره يذرع أرض الغرفة بخطى عصبية . وأتم عبد الواحد كلامه قائلا :

— .. انه محتاج اليك فى هذا الوقت . ألست ابن أخيه ألا يثق فيك أكثر من الغريب . فما رأيك . قل

فاجاب حسن متمتما :

— دعنى أفكر فى الامر .

— الامر واضح لايستوجب تفكيرا . انما يستوجب عزما .

— سأمر عليك فى قهوة الفن عصر اليوم وسأخبرك عما اعتزمت عليه

— حسنا . سأنتظرك .

واستعد عبد الواحد للخروج . ولكنه قبل أن يترك الحجرة عاد الى حسن وهمس فى أذنه قائلا :

— اذا مات الشيخ مبروك وهو غاضب عليك فلن ترث

منه مليما واحدا . لقد عول على التنازل عن كل ما يمتلكه الى زوجته . أما اذا مات وهو راض عنك فستكون أنت وريثه الاكبر .

فاهتز حسن بالرغم منه . ووقف برهة صامتا . ثم انتبه الى نفسه وصاح :

— أتظننى أفكر فى ذلك ياعبد الواحد . أنت تهينى

— معاذ الله ياصديقى . انما رأيت قياما بواجب الصداقة التى تربطنى بك أن أنبهك الى كل شىء . والآن استودعك الله . أنا منتظرك فى قهوة الفن .

وخرج عبد الواحد . وعاد حسن يسير بخطاه العصبية وهو غارق فى تفكير عميق .

— ٩ —

واقتنع حسن بوجوب العودة الى عمه وذهب فى اليوم التالى اليه مع عبد الواحد فقابله الشيخ مبروك بالترحاب واحتضن كل منهما الآخر وهما يبكيان . وقبّل حسن يد عمه وهو يسترضيه بكلمات طيبة .

ومرت الايام وحسن يقوم بعمله فى الدكان خير قيام ويؤدى واجباته الدينية على الوجه الأمثل . وقد قاطع السهر كلية . واكتسبت هيئته مظاهر الرجولة والكمال . قليل الابتسام يتكلم فى غير تطويل ولا يطرق الا الخطير من المواضيع . فكان عمه ينظر اليه مغتبطاً

غير مصدق نفسه ويقول : الهداية من الله .

وكانت صحة الشيخ مبروك ممتلة وظهرت عليه بوادر الانحلال. ولكنه لم يرضخ للمرض بل كان يذهب كل يوم الى الدكان وهو مستند على حسن . يسير فى جهد ومشقة .

واشتد عليه المرض أخيراً فلزم فراشه . وأخذت قواه تنحط بسرعة يوما بعد يوم وحل عليه سبات عميق لم يكن يستفيق منه الا فى أوقات قصيرة . فجزعت عليه أم خليل وطرقت جميع الابواب فاستدعت الاطباء والتجأت الى المشايخ الذين يكشفون الغيب ويعالجون المرضى بالتمائم .وقصدت الى الجوامع وأضرحة الاولياء تفرق الصدقات وتنذر النذور . ولكن لم يفد شيء من كل هذا فقد كان الشيخ مبروك ينطفئ أمامها كانطفاء القنديل الذى انتهى زيته وكان حسن عبد الكريم يراقب مرض عمه فى صمت وهو مستغرق فى تفكير عميق .

واستيقظ الجيران صباح يوم من الايام على « صوات » حار منبعثاً من دار الشيخ مبروك فهرعوا الى الدار يسألون ما الخبر

وخرج حسن من حجرته فزعا فاستقبلته عمته بصياح وعويل وأمسكت به تبثه آلامها وتروى له فاجعتها فأحس حسن كأن قلبه ينصهر ومرت عليه أزمة نفسية شديدة فاندفع يبكى ويلطم وجهه ويصرخ . ولما هدأت حالته ألفى عمته فى حالة يرثى لها . وكانت

منطرحة على الارض على وشك الاغماء . فأسرع اليها وأسعفها بالماء حتى استفاقت . ولكنها لم تعد قادرة على الصراخ فقد بح صوتها وأصابها وهن أقعدها عن الحركة .

وبدأ الناس يفدون على المنزل . رجالا ونساء . وحاول حسن أن يستدر دموعه ليستقبل بها المدعوين فلم تطاوعه عيناه فغافل الجمع وذهب الى حجرته ووقف أمام مرآته حانقا . ثم ثار على نفسه وجعل يقرص وجهه ويفركش شعره ويدعك عينيه بشدة ولمح غير بعيد عنه « حق الغازلين » فاختطفه وجعل يدعك خديه وعينيه ولما انتهى وقف يتأمل نفسه . ثم تهيأ للخروج وهو على هيئة « أوديب » فى فصله الاخير . بعد أن طعن عينيه وشوه وجهه . وفتح الباب وهو يصرخ بأعلى صوته :

— واحسرتاه عليك ياعمى . يامن كنت أعز من والدى

وأخذ يصرخ متحمسا . فتقدم اليه بعض المعزين وقالوا له وهم يلاطفونه :

— ماهذه الاعمال ياحسن . كن رجلا ولا تدع نفسك فريسة الاحزان .

فاشتدت حماسته وتابع صراخه وهو يقول :

— دعونى أقبّله قبلة الوداع ... دعونى أتملى بوجهه الصبوح .

و اندفع يجرى نحو حجرة عمه و بعض معارفه خلفه يحاولون منعه . و دخل الحجرة فالفى الجثة فى فراشها مغطاة بملاءة بيضاء فارتجف و ارتد الى الوراء و اصفر وجهه ولعبت شفتاه بلا كلام ثم لم تطاوعه ساقاه على الوقوف فخر على الأرض . و حملوه الى الخارج .

و أعدوا العدة للجنازة . و ظهر النعش يتبعه و يتقدمه جيش من النساء و الفقهاء و المرتلين . و أراد حسن أن يصرخ و أن يذرف الدموع فلم يستطع و اعتراه وجوم غريب . فسار خلف النعش مطأطئا لا يجسر على رفع بصره اليه . و كانت تنتابه من حين لآخر هزة شديدة . و خيل اليه أن عمه يطل من النعش و انه يلعنه و يبصق فى وجهه . و كانت المسافة طويلة حسبها لا تنتهى و شعر كأن قدميه تفقدان الاحساس . و كأنه يسير فى طريق كله رمل و أخيرا وصلت الجنازة الى المقبرة . و وقف حسن بجوار القبر كالأبكم ينظر الى جثة عمه و هى تنحدر الى مقرها الأخير كأنه يتفرج على شىء عادى . و بغتة طغى عليه احساس غريب فجعل يلطم وجهه و يشد شعره وهو يصيح صياح المجانين وعاد الى الدار فألفى المنزل يضج بالصراخ والعويل فضاق صدره وازدادت هواجسه وأمضى ليلة سيئة مشبعة بأحلام رهيبة . وكان عمه يتراءى

له وهو يطل من نعشه يهدده بيده العارية المزيلة ويبصق فى وجهه.

وقضى حسن بضعة أيام يعيش عيشة الفزع والقلق . ولكن حالته بدأت تهدأ تدريجيا وأخذت ثقته بنفسه تعود اليه . وكان يعجب أشد العجب لتلك الأزمة النفسية الغريبة التى مرت به والتى كادت تقضى على آماله فى الحياة .

— ١٠ —

وحل محل عمه فى الدكان وأبقى الفتى يوسف فى عمله كالسابق وكان قد أهمل حلاقة ذقنه وشاربه على أثر وفاة عمه . فلما وقف يوما أمام المرآة يريد حلقهما لمع بذهنه خاطر غريب . وطال وقوفه أمام المرآة يحدق النظر فى وجهه . وأخيراً خرج بدون أن يمس لحيته وشاربه بأذى .

وكان يراقب نمو لحيته فى شغف وانفعال . ولكن ساءه منها ان ظهرت جرداء غير مكتملة ليس عليها مهابة اللحى الجليلة . وجلس يوما مكتئباً وقد ضاق صدره من عناد لحيته . ولكن لم يطل أمر اكتئابه طويلا اذ قام بغتة الى صندوقه وأخرج منه بعض الشعر المستعار وقارورة بها صمغ . ووقف أمام المرآة يلصق الشعر فى الأماكن الخالية من لحيته. واغتبط لنجاح فكرته.

وخرج فى اليوم نفسه ومعه صرة كبيرة من الملابس وذهب الى خياط عمه . وفتح الصرة أمامه وأخرج منها بعض الجبب والقفاطين الزاهية اللون . وهى من مخلفات عمه وطلب من الخياط أن يصلحها له .

وخرج حسن من داره فى صباح يوم من الأيام وهو بزيه الجديد زى وجهاء المشايخ : عمامة كبيرة مهيبة وجبة فضفاضة زرقاء يشرق تحتها قفطان مخطط ذو لون أصفر جميل ومركوب أحمر يلمع فى وهج الشمس كالجمرة المتقدة . وفى يده مسبحة طويلة غليظة الحبات يسبّح عليها بخشوع . وسار بهذه الهيئة الى الدكان وكان يسلم على الناس فى تؤدة وعيناه نصف مقفلتين .

وقابله عبد الواحد فى الدكان . فلما رآه على هذا الشكل كاد ينفجر ضحكا ولكنه استطاع أن يتغلب على نفسه . ولما استقر بهما المقام التفت عبد الواحد اليه وقال :

— أراك قد غيرت زيك

فرفع حسن رأسه من على مسبحته وقال :

— رأيته أصلح لحالتى الجديدة . لقد زهدت فى الدنيا وما فيها من خبث ونفاق . وأقبلت على العبادة بنفس ظمأى أروى غلتى من فيض الله

— والتمثيل ؟

فرمقه حسن بنظرة غاضبة وقال :

— التمثيل ! ماذا تقصد يا عبد الواحد . وهل تهزأ بى .

— معاذ الله . ولكنى أسألك هل خبت تلك الجذوة الملتهبة التى كانت تتقد بين جوانحك

— هذا سر يعلمه الله . . ولنترك هذا الموضوع ياصديقى فانه يحرك كامن أشجانى . ثم عاد الى تسبيحاته . وبعد قليل رفع رأسه وقال لعبد الواحد :

— سأقيم حفلة « ذكر » هذا المساء فى دارنا . وانى أدعوك لحضورها . فما رأيك

— أقبل دعوتك مع الشكر الجزيل .

— اذن منتظرك بعد صلاة العشاء

— وهو كذلك

وفى المساء ضج صحن الدار بالمدعوين وكانوا رهطاً من الطفيليين ومشايخ الجنازات وفقراء المولوية وبعض الفقهاء المهمين . وأقيمت لهم وليمة عشاء قوامها الفت واللحم . فكانوا يأكلون ويصيحون بالدعوات الحارة لصاحب الدعوة . وكان حسن يسير بينهم وهم ملتفون حول القصعات يحييهم بابتسامة

هادئة وقد ضخّم عمامته حتى أصبح رأسه يترنح تحت ثقلها وفى يده مسبحة جديدة غليظة الحبات تكاد لطولها تمس الأرض

ولما انتهى الطعام وزع حسن الصدقات على روح عمه . وقام بعدئذ الى الصلاة فرشحه الجميع للامامة . فصلى بالناس فى خشوع كبير . ولما اكتملت حلقة الذكر تصدرها حسن وافتتحها بالاناشيد . وشعر بالحماس يدب فى جسمه فترك أمر الانشاد لغيره وأمسك بنبوته الغليظ وجعل يضرب به الارض ليحافظ على وحدة الايقاع . وكان كلما حمى الذكر اشتدت ضربات النبوت وأسرع الذاكرون فى انحناءاتهم المتكررة وهم يصيحون « ألله حى » وكان حسن غارقا فى نشوة عجيبة وبدأ يفقد شعوره بما حوله . وكان جسمه يلعب لعبا مدهشا . وقد اتسعت عمامته وهبطت على وجهه حتى أخفته . وما كاد الدور ينتهى حتى خرّ على الارض فاقد الوعى .

— ١١ —

واستولى على حسن صلاح عجيب فاكثر من حفلات الاذكار ومن زيارته لأضرحة الاولياء والمساجد . وكان يقيم الولائم ويوزع الصدقات بلا حساب فذاع صيته وكثر أتباعه . وكان يقضى يومه

إما مصليا أو غارقا فى تسبيحاته اللانهائية وهو جد مغتبط بتلك الموجة الصالحة التى اكتسحت نفسه فطهرتها من أدران الفساد .

وكان يتردد على مجالس الفقهاء ويستمع بشغف الى مناقشاتهم الدينية . ويحضر دروس الوعظ ويكثر من قراءة القرآن وكتب الحديث والتفسير . وكان يحس فى نفسه بشعور غامض يلهب حماسته فى الدين ويدفعه لأن يعمل عملا كبيرا فيه .

ففى يوم من أيام الجمع بينما كان فى المسجد يستمع الى خطبة الامام اذ شعر كأن شيئاً ينفجر فى صدره . فقام من فوره وسار متجهاً نحو المنبر وهو فى شبه غيبوبة نفسية غير واعٍ لمن كان يتخطاهم فى طريقه أو يدوسهم . ليس منتبهاً الى زمجرة الناس . يصيح قائلا :

— أنا الذى اختارنى الله لهدايتكم . أنا الذى لا أنطق الا بالحق . فمن اتبعنى فقد اتبع الله .

ووصل الى المنبر فى الوقت الذى انتهى فيه الخطيب من خطبته . وارتقى درجات المنبر فى سرعة مدهشة . وصرخ على الجمع فى انفعال كبير وقال :

— ياعباد الله . استمعوا الىّ جيداً والله يهديكم سواء السبيل .

والتفت الناس فوجدوا أمامهم على المنبر قزما عجيب الشكل

فى هيئة شاذة . له عمامة حمراء عظيمة تترنح من ثقلها على رأسه . يحدق فيهم تحديق المخبولين ويشوح بيديه تشويحاً غريباً .. وسمعوه يتابع قوله :

— .. انى مسير لا مخير . قد أمرنى الله أن أحمل لكم رسالتى لأنقذكم مما أنتم فيه من جهل .. انكم غارقون فى المعصية وأنتم لا تشعرون .

فهمهم الناس فيما بينهم متضايقين . وقام شخص ممن كان يعرف حسن أيام اشتغاله بالتمثيل وقال :

— ماهذا الملحوس الذى تتركونه هكذا يهذى بكفره .

وبدأ الجمهور يصيح . ولكن حسن كان مندفعاً فى خطابته بحماس شديد وهو يقول :

— .. اتبعونى اتبعونى . انى هاديكم الى الصراط المستقيم . .

فازداد صياح الناس . وصرخ شخص قائلا :

— انزل ياجدع والا أنزلتك رغم أنفك .

ولما وجد الجمع أن حسن غير مبال باحتجاجهم اندفع نفر منهم نحو المنبر وهم يشتمونه ويهددونه . وخرج من بينهم عملاق ضخم الجسم فارتقى المنبر فى خطوتين ثم أمسك حسن من قفاه وحمله الى خارج الجامع وألقاه بعيداً عن الباب والناس حوله يضحجون

بالضحك مهللين . وتم ذلك فى سرعة أذهلت حسن وحسب انه يحلم أو انه محموم . وأخذ يفرك عينيه وينظر الى الصبيان الذين التفوا حوله بعد عودة المصلين الى الجامع . واستطاع أخيراً أن يفهم ماحل به فاكفهر وجهه وأخذ يتمتم فى يأس قائلا :

— حتى أنتم أيها المصلون فيكم الحساد المنافقون

وقام يجر نفسه الى المنزل

ومنذ ذلك الحين ظهرت على حسن بوادر الانقباض والقلق وبدأ ينسى بعض فروضه الدينية . وأهمل عمامته فصفرت وتضاءل شأنها . ولم يعد يهتم بحمل مسبحته اذ وجدها مضايقة له معطلة لأعماله . وقاطع الجوامع وانقطع عن زيارة الفقهاء وأبطل تدريجيا حفلات الذكر . وكان يجلس فى الدكان مهموما غارقا فى تفكيره .

وجاءه مرة عبد الواحد وكان قد لاحظ عليه هذا التغيير . فبادره بقوله :

— أرى الهم لايفارقك هذه الايام . فماذا حل بك

— لا أجد فى الحياة ما يدعو الى المسرة

— مع انك تعيش فى رخاء وحالة الدكان حسنة

— كأنى بك تقول ان المال هو كل شيء فى الحياة . ونسيت ان روحى تصبو الى ماهو أسمى وأرفع .

— لا أفهم ما تقول

— حتى انت مع اخلاصك ونبل أخلاقك لاتفهمنى ... اعلم ياصديقى انى لم أخلق فى هذه الدنيا لأبيع الجبن والصابون ان الله كلفنى برسالة علىّ أن أبلغها لهذه الامة الظالمة .

— رسالة فنية على ما أظن

— رسالة عظيمة ينوء بها قلبى. وستقتلنى اذا لم أستطع ابلاغها

— اذن كافح فى سبيل ابلاغها والله يمينك

— سأكافح سأكافح وانى معتمد على الله فى دعواى . وسيعلم الحساد المنافقون أى منقلب ينقلبون .

وكانت عيناه تلمعان وشفتاه ترتعشان . وصمت الصديقان برهة . ثم تكلم حسن قائلا :

— سأقص عليك حلماً يتراءى لى منذ أيام . حلماً عجيباً كأنه حقيقة ناصعة . لقد رأيت نفسى قابضاً على فأس عظيم أهد به منزلى ودكانى ووراءى كلاب تنبح بشدة وتريد الهجوم علىّ لتمزيقى وأنا مجد في عملى أسخر منها . ومن الغريب أننى كنت أثناء ذلك مرتدياً ملابس هملت .

— ملابس هملت ؟

— يحق لك أن تعجب أيها الصديق . أما قلت لك انه حلم

غريب . كنت أهد بيدى اليمنى دكانى ومنزلى وأشيد بيدى اليسرى صرحاً عظيماً لم أتبين شكله جيدا ولكن أنواره كانت تخطف الابصار . واذا بقيس بن الملوّح (مجنون ليلى) يخرج من بين الانقاض ويعانقنى عناقا حارا ويقول لى بصوته المذنب : تقدم الى الامام ولا تجزع .. ثم أنوار وظلمة كانت تتعاقب بسرعة مصحوبة بضجة هائلة ... وهتاف عظيم . فما رأيك يا صديقى فى هذه الرؤيا ؟

— مدهشة للغاية . ولكن ما تفسيرها ؟

فصمت حسن مدة طويلة ثم أجاب صديقه فى لهجة توكيد :

— تفسيرها فى كلمتين قالهما لى قيس : تقدم الى الامام ولا تجزع

— ١٣ —

وباع حسن دكانه ومنزله وبدأ يشيد مسرحا كبيراً من الخشب فى جهة سيدنا الحسين . كان يصرف عليه عن سعة وقد اعتزم حقاً أن يعمل عملا حاسماً فى سبيل الفن . ولِمَ التوانى .. المال متوفر . والصدر يحترق بالنار المقدسة . والهاتف يصيح به أن تقدم ولا تخشَ شيئاً .

وتغطت جدران العاصمة باعلانات فرقته . وكان يذهب

كل يوم الى مسرحه ليراقب الأعمال الختامية ويدير البروفات ويوصى الفنانين على صنع الستائر والاثاث والملابس . عمل مرهق يقوم به حسن بثغر باسم وعزيمة لا تعرف الكلل وقد جمع فرقته من صغار الممثلين ـ هواة ومحترفين ـ واعتزم أن يخلقهم خلقاً جديداً وينافس بهم فطاحل زملائه القدماء . وعين زميله عبد الواحد مديراً فنياً للفرقة بمرتب لم يحلم به فى حياته وقدم له فى الحال مبلغاً وافرا ليتولى أمر الصرف على الفرقة . وكان يدخل مسرحه وهو يسير فى هوادة مقطب الوجه ينظر حوله نظرة ترفع ويشير على الناس والاشياء حوله بعصاته الثمينة اشارات خاطفة وهو يقول :

— اخرجوا هذا فى الحال .. هذه القطعة من الاثاث فظيعة . يجب تحطيمها . . سكون . . لا يعترض أحد على كلامى . القاعك يا جدع زفت وقطران . . وأنت فى أى مزبلة تعلمت التمثيل . . اسمع يا عبد الواحد . . يجب التنبيه على النجار باحضار الكراسى غدا . واذا تأخر فحطم الكراسى على رأسه . . لا يهمنى أحد . . . أريد عمل متقن فى كل شىء ...

وكان عبد الواحد يسير خلف حسن ويجيب دائما بقوله :

— أمرك مطاع يا أستاذ

وفى المساء كان حسن يستدعى مدير فرقته الفنى ليملى عليه روايته التى يؤلفها والتى اعتزم أن تكون رواية الافتتاح . وقد اعتقد ان مثل هذه الرواية ستمثل كل ليلة على المسرح لمدة لا تقل عن الثلاثة أو الاربعة شهور .

كان يجلس متكوما على مقعد كبير من الفوتيل يدخن سيجارته فى صمت مضطرب وينظر بحدة الى سقف الغرفة . ثم يشرق وجهه بغتة ويقفز من كرسيه ويبدأ يسير فى الغرفة ذهاباً وإياباً وهو يقول :

— ... أنتِ نور قلبى يا حياتى .. نور قلبى أنتِ ياحياتى .. يا حياتى نور قلبى أنت ...

وكان يطيل فى الكلمات وينطقها بتنغيم وترخيم على أشكال مختلفة وهو يعيدها مرارا . ثم وقف أمام عبد الواحد وقال :

— إن عملية مزج الكلمات وتحويلها الى جمل فنية من أشق الاعمال . وهنا الصعوبة فى التأليف .. وهل هناك فرق بين الملحن الذى يمزج بين مختلف النغمات ليخرج لحنه والكاتب الذى يؤلف بين الكلمات لينظم منها جمله .. المسألة مسألة نغم

ثم رفع رأسه فى زهو وتابع سيره وهو يقول :

— أكتب ، نور قلبي أنت ياحياتي ...

— ١٣ —

وحلت ليلة التمثيل وتلألأت الانوار وازدحم المكان بالمتفرجين . وكان معظمهم من طبقة أولاد البلد . ودقت الساعة العاشرة ولم ترفع الستارة بعد . وبدأ الجمهور يتململ . وأظهر احتجاجه بالتصفيق طالبا رفع الستار . فخرج اليهم حسن فى ملابس التمثيل حاملا فى يده اليمنى سيفا طويلا يخطف الابصار بلمعته . وكان لابسا عمة ضخمة مرصعة باللآلىء المسرحية . ووقف أمام الستار وانحنى فصفق له الجمهور . ثم اعتدل فى وقفته وهو مشرق الجبين وقال :

— سادتى الافاضل . نشكركم على حفاوتكم بنا وتقديركم لعملنا باقبالكم هذا الاقبال العظيم على مشاهدة روايتنا . والمعذرة اذا تأخر رفع الستار خمس دقائق أخرى لبعض الضرورات الفنية التى تستلزمها ليلة الافتتاح .

فقام أحد الحاضرين وقال :

— هل حضرتك (حسن أبو على الممثل الكبير)

فانحنى حسن علامة الايجاب انحناءة ارستقراطية بهيئة مسرحية أثارت ضحك الجمهور . وشمر الشخص الاول كميه وبدأ يصفق

و يغنى قائلا

— حسن أبو على سرق المعزة .

فجعل الحاضرون يرددون الاغنية معه . أما حسن فظل برهة واقفا أمام الستار وهو يحاول اسكات الحاضرين ولما لم يفلح دخل مزمجرا وهو يقول :

— سفلة منحطون غجر

ودخل المسرح فوجد الهرج والمرج سائدا فيه . ممثلون لم يتموا زينتهم وارتداء ملابسهم . ستائر ناقصة لم تفصل بعد من المتعهد . الفصل الاول لم يُرتب منظره بعد . فازداد حسن غيظا وأخذ يركل الاثاث بشدة وهو يقول :

— لقد فضحتمونى أيها الكلاب

ثم وقف فى وسط المسرح وشهر سيفه الطويل كما كان يفعل دون كيشوت وقال صارخا :

— التمثيل سيبدأ بعد خمس دقائق . بعد خمس دقائق فقط . فاستعدوا . ومن تأخر سيطرد فى الحال .

وكان الجمهور مازال يغنى (حسن أبو على سرق المعزة) ودنا حسن من الستار ونظر على الناس من الفتحة الصغيرة فوجد شاباً من المتفرجين اعتلى مقعده وصاح بملء فيه وهو يصفق :

— عاوزين (بدره) . عاوزين بدره

وانقلب الجمهور كله يصفق معه ويردد بصوت واحد : عاوزين بدره .

وكان قد أعلن أن « السيدة بدره سرور » مطربة المشرقين ستظهر لأول مرة على تختها المشهور بين فصول الرواية . وتقدم عبد الواحد ومعه عصاه الغليظة الخاصة برفع الستار وقال لحسن

— ألا تفضل يا أستاذ أن نبدأ الحفلة بوصلة طرب من السيدة بدره وفرقتها ربما تصل الستائر الباقية ويتم الممثلون ارتداء ملابسهم .

فاحمرت عينا حسن وصاح فى مديره الفنى قائلا . .

— كأنى بك تحرضنى على تحطيم عصاتك هذه على رأسك . . ماهذا الجنون . . .

— ان الجمهور يطلبها

— فليطلبها حتى الصباح . لن أبدأ روايتى بوصلة طرب . هذه اهانة للفن الذى أمثله

— وما العمل اذن .

— سترى

وخرج مهرولا خارج الستار وسيفه الطويل فى يده . فخفت جلبة الجمهور . ووقف حسن وقفة كبرياء وخاطب المتفرجين بلهجة لاتخلو من خشونة قائلا :

— سيداتى وسادتى . سألقى على مسامعكم منلوجا تمثيليا جديداً من تأليفى

فأظهر بعض الحاضرين ملالهم وعادوا الى جلبتهم وأظهر البعض الآخر شيئاً من الاهتمام وجعلوا يُسكتون المشاغبين . وبدأ حسن يلقى منولوجه وسط هذه الضجة يريد التغلب عليها بقوة تمثيله والقائه . وبينما هو مجد فى تمثيله اذ أجابه أحد النظارة « بشخرة » عظيمة وقعت على حسن وقوع القنبلة فجمد فى مكانه مصعوقا . وضج الجمهور بالجلبة العالية . ثم استعاد حسن جأشه وصاح ثائراً :

— أخرجوا السافل الدنىء . أخرجوا الدساس المأجور . أخرجوه فى الحال .

وضاع صوته فى الضجة فلم يسمعه أحد . وكان الهرج والمرج سائداً فخيل الى حسن أن أمره قد نُفذ فى الحال . فعاد يلقى منولوجه فى حماسة عظيمة . واذا به يسمع صوتا عالياً يندب ويصوت قائلا :

— يادهوتى عليك ياحسن يابو على ياخويا

واختلط الشخر بالصوّات والزغاريد بالندب وجعل بعضهم يصفق ويدبدب قائلا « عاوزين بدره ، عاوزين بدره » . وجُن جنون حسن فأخذ يصيح قائلا :

ـ أيها الأوغاد المأجورون . سأطردكم من مسرحي طرد الكلاب.

ودخل يجري الى المسرح وهو شاهر سيفه وقد اعتزم ان يستدعي البوليس لاخراج المشاغبين . فوجد الممثلين ينهبون المسرح ويتضاربون . فطاح فيهم بسيفه يريد تأديبهم ولكنه أصيب في رأسه بكرسي رماه عليه أحدهم فخر على الارض فاقد الوعي . وقامت معركة حامية بين المتفرجين وهجموا على شباك التذاكر لاسترداد نقودهم . وطوّحت الكراسي وتحطمت المصابيح واشتعلت النيران فجأة وانتشر الذعر بين الجميع وضج المكان بأصوات الاستغاثة . . ولم يمض على ذلك قليل من الوقت حتى كان المسرح بأكمله يشتعل في توهج هائل ويتداعى في أصوات مفزعة .

— ١٤ —

وباحتراق المسرح أضاع حسن كل ثروته . واضطر الى ترك شقته الواسعة الجميلة التي أجرها بعد مبيع منزله ، والانتقال مع عمته الى حجرة حقيرة في حي السيدة زينب

وقضى حسن على نفسه بالحبس في غرفته فكان يقضي فيها كل وقته متجهم الوجه . قليل الكلام . غارقا في همه وحسرته . وكان يثور بغتة فيعض يديه ويضرب الهواء بقبضته وهو يقول

— سوف أفنيكم أيها السفلة الأوغاد .

أما عمته فكانت تخرج لتستجدى من أهل الخير أو تخدم نظير أجر ضئيل ثم تعود بالطعام لها وله . وحدث مرة أن قامت بينها وبين حسن مشادة فقالت له :

— الى متى هذه الخبسة . كأنك استطعمت لذة الكسل فتركت العمل لى والنوم لك .

فملق فيها وقال :

— وهل تجرؤين على القول بأنى أستمتع بالنوم . انى أقضى الليالى سهران بينما أنت بجانبى تشخرين .

— وماذا أفادنا سهرك هذا .

— انى أفكر فى مشاريع لا تفهمينها .

— ياخى جك نيله على مشاريعك . لم نر منها الا الخسارة ووجع القلب

— الخسارة ووجع القلب سترين . ان لى ارادة تفلق الصخر وتصهر الحديد .

وفى صباح اليوم التالى خرج حسن من منزله مبكراً وقد عقد العزم على البحث على عمل يتكسب منه . وقضى اليوم بأكمله يجوب المدينة ويسأل الناس بلا جدوى . وأخيراً عاد الى حجرته وقد برّح به التعب والجوع . ولما سألته عمته عما فعل رفع يده مهددا وشفتاه المصفرتان ترتجفان وقال :

— سوف أسحقهم . الخونة المأجورين

وخرج فى اليوم التالى وقضى اليوم كله باحثا منقبا عن عمل وعاد كأمسه خالى الوفاض متهدما يقرض أظافر يديه .

ومضى عليه أسبوع وهو على هذا الحال • يترك حجرته من الفجر و يعود اليها بعد غروب الشمس • وهو مكدود جائع فريسة للهم و الاضطراب • وكان يتجنب مقابلة معارفه و بالاخص صديقه عبد الواحد • حتى اعتقد الاخير أن حسنا لايريد أن يراه •

وكان يمر على القهاوى و يقف أمام بعض الزبائن يروى لهم تاريخ حياته و يشرح لهم تصميمات مشاريعه • فاذا مل أحدهم كلامه وطرده رمقه حسن بنظرة شزراء وقال له :

— ياللزمن الخاسر . الذى يطرد فيه الصعاليك كبار الفنانين .

و اذا باسطه أحدهم وعرض عليه سيجارة أو مشروبا أشرقت أسارير حسن وقال له :

— سيدى أنت رجل تقدر الفن وأهله • ولكنى لن أقبل ماعرضته علىّ حتى أسمعك منلوجا من منلوجاتى الفنية .

و يشرع يلقى أمامه منلوجه فى حماس كبير • و بعد ذلك يقبل على السيجارة أو المشروب فى تلهف وشوق •

— ١٥ —

وساءت صحة حسن و بلغ منه الهزال منتهاه • وأخيرا أصيب

بذات الرئة . وكانت من النوع السريع الفتاك الذى لا يمهل صاحبه الا أياما معدودة .

وزاره عبد الواحد وهو فى ساعته الاخيرة . وكان حافظا لقواه العقلية . فأمسك حسن بيد صديقه وقال متمتما :

— لدىّ مشروع عظيم أريد أن أسرّه اليك . ولكن حذار من اذاعته . ان حسادى كثيرون وواقفون لى دائما بالمرصاد ...

— لن أفشى سرك يا أستاذ

فابتسم حسن ابتسامة ضئيلة وقال :

— ادنِ رأسك منى .. أجل هكذا .. اسمع اذن ... أريد أن أنشىء..... مـ .... وسقط رأسه على الوسادة فحركه عبد الواحد فاذا به جثة هامدة...

تم الكتاب ويليه

الأطـــــلال

رواية قصصية مصرية

الفهرس

صفحة

ج كلمة للبحاثة الكبير الاستاذ (ج . ويدمار)
المستشرق السويسرى

د كلمة للمؤلف

١ العودة

١٥ الى الجنة

٢٩ صابحة

٤٥ جحيم امرأة

٦٧ الشيطان

٨٩ الى الحضيض

١١٣ أبو على عامل أرتست

مؤلفات المؤلف

١ الهبة الأولى

تحت الطبع وهو يحتوى على المختار من قصص المؤلف التى ظهرت فى مجموعاته الثلاث الاولى : الشيخ جمعه وعم متولى والشيخ سيد العبيط بعد أن هذب بعضها وألّف البعض من جديد

٢ ـ حب أفندى

تظهر طبعته الثانية المنقحة عن قريب

٣ الحاج ثلبى

وأقاصيص أخرى

تولّت نشره لجنة التأليف والترجمة والنشر

٤ أبو على عامل أرتست

وأقاصيص أخرى

٥ اسطمرل

رواية قصصية مصرية

تحت الطبع